مجلــة

جامعة

الملك خالد

للعلوم الإنسانية

دورية علمية نصف سنوية ، محكمة

المجلد ٧، العـدد ٢

ربيع الثاني ١٤٤٢ هـ ديسمبر ٢٠٢٠م

مجلة جامعة الملك خالد

للعلوم الإنسانية

المـجـلد السابع ـ العدد الثاني ربيـع الثاني١٤٤٢ هـ ديـسمبر ٢٠٢٠

مجلة علمية، نصف سنوية، مُحكمة

المشـرف العام

أ.د. فالح بن رجاء الله السلمي

مدير جامعة الملك خالد

نائب المشرف العام

أ.د. سعد عبد الرحمن العمري

وكيل الجامعة للدراسات العليا والبحوث

رئيس التحريـر

أ.د. عبدالعزيز إبراهيم يوسف فقيه

مديـــــر التحريـر

د. إسماعيل خليل الرفاعي

المراسلات:

توجه جميع المراسلات إلى رئيس هيئة التحرير على العنوان التالي:
مجلة جامعة الملك خالد للعلوم الإنسانية

الرمزالبريدي: ٦١٤١٣ صندوق البريد ٩١٠٠، المملكة العربية السعودية

البريد الإلكتروني: humanities@kku.edu.sa

إخلاء مسؤوليـة

المواد العلمية المنشورة في المجلة تعبر عن آراء أصحابها ولا تنسب إلى الرعاة أو الناشر أو المحرر أو هيئة تحرير مجلة جامعة الملك خالد للعلوم الإنسانية.

رقم إيداع ١٤٣٥/٣٠٧٦ بتاريخ ١٤٣٥/٣/١٢هـ
الرقم الدولي المعياري (ردمد) ٦٧٢٧-١٦٥٨

أعضاء هيئة التحرير

م	الاسم	الصفة
١	أ.د. عبد العزيز إبراهيم يوسف فقيه	رئيس التحرير
٢	أ.د. يحيي عبد الله الشريف	عضو هيئة التحرير
٣	أ.د. مربع بن سعد آل هباش	عضو هيئة التحرير
٤	أ.د. عوض بن عبد الله القرني	عضو هيئة التحرير
٥	أ.د. أحمد بن يحي آل فايع	عضو هيئة التحرير
٦	أ.د. عبد اللطيف بن إبراهيم الحديثي	عضو هيئة التحرير
٧	أ.د. حسين بن محمد آل عبيد	عضو هيئة التحرير
٨	د. سلطانة بنت محمد الشهراني	عضو هيئة التحرير
٩	د. إسماعيل خليل الرفاعي	عضو هيئة التحرير ومدير التحرير
١٠	أ. تركي بن علي آل حميد	سكرتير المجلة

أعضاء الهيئة الاستشارية

م	الاسم	الجهة
١	أ. د. إبراهيم الجبري	جامعة الملك فهد للبترول والمعادن
٢	أ. د. أحمد عبد العزيز الحليبي	جامعة الملك فيصل
٣	أ. د. أمين بلمكي	جامعة بكر بلقايد
٤	أ. د. حسام بن عبدالمحسن العنقري	جامعة الملك سعود
٥	أ. د. خوزيه راباسا	جامعة هارفارد
٦	أ. د. دوج آرنولد	جامعة إسيكس
٧	أ. د. سعد البازعي	جامعة الملك سعود
٨	د. محمد أمين مخيمر	جامعة بني سويف
٩	أ. د. صالح بن سعيد الزهراني	جامعة أم القرى
١٠	أ. د. صالح زياد الغامدي	جامعة الملك سعود
١١	أ. د. صالح معيض	جامعة الملك سعود
١٢	أ. د. فواز عبد الحق	جامعة اليرموك
١٣	أ. د. محمد عباس	جامعة الملك خالد
١٤	أ. د. محمد مرسي الحارثي	جامعة أم القرى
١٥	أ. د. منى بيكر	جامعة مانشستر
١٦	أ. د. جلن استكويل	جامعة ويسيدا اليابان

مجلة جامعة الملك خالد للعلوم الإنسانية

مجلة جامعة الملك خالد للعلوم الإنسانية دورية علمية متخصصة في العلوم الإنسانية، محكمة في آلية قبول البحوث القابلة للنشر بها، وتهدف إلى نشر الإنتاج العلمي للباحثين في تخصصات العلوم الإنسانية، وتعنى بالبحوث الأصيلة التي لم يسبق نشرها باللغتين العربية والإنجليزية والتي تتسم بالمصداقية وإتباع المنهجية العلمية السليمة.

أهداف المجلة

١. الإسهام في إبراز دور الحضارة الإسلامية في إثراء العلوم الإنسانية.
٢. نشر البحوث العلمية المحكمة في مجال العلوم الإنسانية بفروعها المختلفة.
٣. الإضافة إلى مركوم المعرفة في الدراسات الإنسانية.
٤. إبراز جهود الباحثين في الدراسات والبحوث العلمية ذات الصلة بموضوعات الإنسانيات.

شروط النشر

١. يجب أن يتصف البحث بالأصالة والابتكار والجدة واتباع المنهجية العلمية الملائمة وصحة اللغة وسلامة الأسلوب.
٢. أن لا يكون قد سبق نشره أو قدم للنشر في مكان آخر، ويتعد الباحث كتابةً أن لا يكون البحث قد سبق نشره أو قد قدم للنشر مزامنة مع تقديمه للنشر في مجلتنا إلى مجلة أخرى حتى يتم اتخاذ القرار المناسب في هذا الشأن.
٣. ألا يكون البحث جزءاً من كتاب منشور أو مستلاً من رسالة علمية.
٤. أن لا يزيد عدد صفحات البحث عن ٤٠ صفحة.
٥. تخضع جميع البحوث المقدمة للنشر في المجلة للتحكيم بعد اجتيازها مرحلة الجرد الداخلي.
٦. لا يجوز نشر البحث أو أجزاء منه في مكان آخر بعد إقرار نشره في مجلة جامعة الملك خالد للعلوم الإنسانية إلا بعد الحصول على إذن كتابي بذلك من رئيس التحرير.
٧. موافقة المؤلف على نقل حقوق النشر كافة إلى المجلة، وإذا رغبت المجلة في إعادة نشر البحث فإن عليها أن تحصل على موافقة مكتوبة من صاحبه.
٨. يمنح المؤلف نسخة واحدة من العدد المنشور فيه بحثه، وجميع أصول البحث التي تصل إلى المجلة لا تردّ سواء نشرت أم لم تنشر.

متطلبات النشر وتعليماته

١. تصنف المواد التي تقبلها المجلة للنشر وفق ما يأتي:

البحث أو الدراسة: من عمل المؤلف في مجال تخصصه، ويجب أن يكون أصيلاً، وأن يضيف جديداً للمعرفة.

المقالة: وتتناول العرض النقدي والتحليلي للبحوث والكتب ونحوها التي سبق نشرها في ميدان معين من ميادين الدراسات الإنسانية.

منبر الرأي: رسائل القراء إلى المحرر والردود والملحوظات التي ترد إلى المجلة.

٢. بالنسبة للبحوث والدراسات، تنشر المجلة البحوث الآتية فقط:

أولا: البحوث الميدانية (الامبريقية): يورد الباحث مقدمة يبين فيها طبيعة البحث ومبرراته ومدى الحاجة إليه، ثم يحدد مشكلة البحث، ثم يعرض طريقة البحث وأدواته، وكيفية تحليل بياناته، ثم يعرض نتائج البحث ومناقشتها والتوصيات المنبثقة عنها، وأخيراً يثبت قائمة المراجع.

ثانياً: البحوث النوعية التحليلية: يورد الباحث مقدمة يمهد فيها لمشكلة البحث وأسئلته مبيناً فيها أهميته وقيمته في الإضفاء إلى العلوم والمعارف وإغنائها بالجديد، ثم يقسم العرض بعد ذلك إلى أقسام متسلسلة ومترابطة على درجة من الاستقلال فيما بينها، بحيث يعرض في كل منها فكرة مستقلة ضمن إطار الموضوع الكلي ترتبط بما سبقها وتمهد لما يليها، ثم يختم الموضوع بخلاصة شاملة وتوجيهات، وأخيرا يثبت قائمة بالمراجع.

٣. أن يحتوي البحث على: عنوان البحث باللغتين العربية والانجليزية وملخص باللغتين العربية والإنجليزية في صفحة واحدة بحدود (١٥٠) كلمة لكل ملخص، وأن يتضمن البحث كلمات دالة على التخصص الدقيق للبحث باللغتين وسيرة ذاتية مختصرة للباحث أو الباحثين.

٤. تقدم البحوث مطبوعة بخط (Simplified Arabic) حجم (١٤) للنصوص في المتن، ويكتب البحث على وجه واحد، مع ترك مسافة ١.٥ بين السطور.

٥. إن سياسة المجلة تستوجب (بقدر الإمكان) أن يتكون البحث من الأجزاء التالية (للبحوث الامبريقية - الميدانية): مقدمة الدراسة، مشكلة الدراسة، وأهدافها وأسئلتها/ أو فرضياتها، أهمية الدراسة، محددات الدراسة، التعريفات بالمصطلحات، إجراءات الدراسة، وتتضمن: المجتمع والعينة، أداة الدراسة، صدق وثبات الأداة، المنهج المتبع في الدراسة، ثم عرض النتائج، ومناقشتها، وأخيراً الاستنتاجات والتوصيات.

٦. يراعى في أسلوب توثيق المراجع داخل النص وفق نظام جمعية علم النفس الأمريكية (APA).

معلومات الاتصـــال

ينبغي توجيه جميع المراسلات إلى رئيس تحرير مجلة جامعة الملك خالد للعلوم الإنسانية على العنوان التالي:

مجلة جامعة الملك خالد للعلوم الإنسانية

الرمز البريدي ٦١٤١٣

صندوق البريد ٩١٠٠

البريد الإلكتروني: humanities@kku.edu.sa

المحتويات

مقدمة التحرير ١٠

أسماء النبات في ديوان امرئ القيس - دراسة لغوية ومعجمية

د. ياسر الدَّرويش ١٣

التوريدات المعفاة من ضريبة القيمة المضافة- دراسة مقارنة

د. منصور بن عبدالرحمن الحيدري ٥١

الدور القانوني للأمن السيبراني في مكافحة الجريمة

د. هدى بنت أحمد البراك ٨٣

الرحلة عبر مصر في يوميات الرحالة البلجيكي أنسيلم أدورنو (١٤٧٠م) والألماني أرنولد فون هارف (١٤٩٧م) - دراسة مقارنة في ضوء الرحلات الأوروبية خلال نصف القرن الأخير من العصر المملوكي

د. عبدالعزيز عبدالله محمد أبوداهش ١١٣

اللسانيات القضائية وتدريس تطبيقاتها في المملكة العربية السعودية

د. فهد مسعد اللهيبي ١٥١

المذاكراتُ في الدرسِ النحويِّ الأندلسيِّ من خلالِ شرحِ الجملِ لابنِ الفخّارِ

د. مهدي بن حسين مباركي ١٧٣

المقومات البيئية للتنمية العمرانية في محافظة أحد رفيدة بتطبيق نظم المعلومات الجغرافية

د. سلمى بنت عبدالله حسن الغرابي ٢١٥

جدلية الأنساق في رواية قنص لعواض العصيمي: دراسة نصوصية ثقافية

د. حمدان محسن الحارثي ٢٥١

حق تملك الأسهم والحصص للمستثمر الأجنبي في النظام السعودي

د. فارس بن محمد القرني ٢٨١

لام التعريف بين الدرس اللغوي ولهجات منطقة عَسِيْر: دراسة صوتية

د. فهد بن سعيد القحطاني ٣٠٩

مستوى الرضا عن خدمات الرعاية الصحية الأولية ومدى تأثير الخصائص الاقتصادية والاجتماعية والسكانية للمستخدمين عليه في مدينة أبها، المملكة العربية السعودية ٢٠٢٠

د. حمود مبارك أبوظهير ٣٤٣

مجلة جامعة الملك خالد للعلوم الإنسانية
المجلد ٧ العدد ٢
٢٠٢٠

King Khalid University Journal of Humanities, Volume 7 , Issue 2, 2020
https://hj.kku.edu.sa

الرحلة عبر مصر في يوميات الرحالة البلجيكي أنسيلم أدورنو (١٤٧٠م) والألماني أرنولد فون هارف (١٤٩٧م)

دراسة مقارنة في ضوء الرحلات الأوروبية خلال نصف القرن الأخير من العصر المملوكي

د. عبدالعزيز عبدالله محمد أبوداهش (*)

جامعة الملك خالد

الملخص

تهدف هذه الدراسة إلى مناقشة التجربة الخاصة التي مر بها كل من الرحالة البلجيكي أنسيلم أدورنو والألماني أرنولد فون هارف في مصر، ومقارنتها بغيرها من التجارب المعاصرة بهدف تفسير العوامل التي دفعت أولئك الرحالة إلى تفضيل تكبد عناء السفر عبر مصر بدلًا من الانتقال المريح مباشرة إلى القدس عبر الرحلة الرسمية المنظمة من البندقية إلى يافا، فضلًا عن رصد المصاعب والمخاطر التي واجهوها وكيف تغلبوا عليها بداية من الحصول على التصاريح التي تسمح لهم بحرية المرور، والتعامل مع موظفي الموانئ والقصر، فضلًا عن التفاوض مع بحارة القوارب النيلية ومُكَارِية الحمير والبغال وسائقي الجِمال، ومواجهة جشع المستغلين أو خطر اللصوص وقطاع الطرق، والتعاطي مع مشكلات الاختلاف اللغوي والثقافي والديني.

الكلمات المفتاحية: **أنسيلم أدورنو؛ أرنولد فون هارف؛ الحجاج الأوروبيون؛ الرحلة إلى مصر؛ العصر المملوكي.**

(*) عبدالعزيز عبدالله محمد أبوداهش، أستاذ التاريخ المساعد، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الملك خالد

مجلة جامعة الملك خالد للعلوم الإنسانية
المجلد ٧ العدد ٢
٢٠٢٠

King Khalid University Journal of Humanities, Volume 7 , Issue 2, 2020
https://hj.kku.edu.sa

The Journey through Egypt in the Diaries Two Voyagers the Belgian Anselm Adorno (1470), and the German Arnold von Harff (1497)

Dr. Abdulaziz Abdulah Mohammed Abu Dahesh(*)
King Khalid University

Abstract

This study aims to discuss the individual experience that both voyagers the Belgian Anselm Adorno and the German Arnold von Harff had in Egypt, and compare it with other contemporary experiences through explaining the factors that prompted these travelers to prefer incurring the difficulty of traveling through Egypt instead of moving directly to Jerusalem via the official and well-organized trip from Venice to Jaffa. The study also observes the difficulties and dangers these two voyagers faced and how they overcame them. The study tries to give answers to the following questions: How did they obtain permits that allow them free passage, how did they deal with port and governmental employees? How did they negotiate with Nile boat sailors, and those renting donkeys, mules and camel drivers, and finally how did they confront the greed of exploiters bandits, and deal with the problems of linguistic, cultural and religious differences?

Keywords: European pilgrims, Arnold Harff, Anselm Adorno, Mamluk Sultanate, Voyage to Egypt.

(*) Abdulaziz Abdulah Mohammed Abu Dahesh, Assistant professor of History, College of Humanities, King Khalid University

مقدمة:

يتفق الباحثون الحديثون على أن بسط سلاطين المماليك سيادتهم على مصر وبلاد الشام –بعد إسقاطهم لبقايا المشروع الصليبي في المنطقة - لم يؤثر بالسلب على حرية رحلات الحج الأوروبي إلى القدس والمزارات المسيحية الأخرى في مصر وفلسطين، بل على العكس من ذلك تزايدت وتيرة هذه الرحلات منذ منتصف القرن الرابع عشر حتى أوائل القرن السادس عشر الميلاديين(Ladić, 2014: 95-111; Webb :29; Legassie, 2017: 134-135; Weber, 2001: 47). ويقترح أولئك الباحثون عددًا من الأسباب لهذه الزيادة، ففي حين يردها زوران لاديش Zuran Ladić إلى عوامل موغلة في المحلية الأوروبية تتعلق بتزايد الاهتمام بشبكة الطرق البحرية والبرية الداخلية وتأمينها وإنشاء النزل والمشافي عبرها، مما "وفر رحلات أكثر راحة وأمانا عن ذي قبل" (Ladić, 2014: 103)، يقترح جون بريور John Pryor أن: "تزايد حركة التجارة، ومن ثم بناء السفن الأكبر حجمًا، وفر حركة ملاحة أكثر أمنًا ويسرًا وفعالية" (Pryor, 1988: 51-55). وهذا العامل التجاري أكدت عليه شايني ليجاسي Shayne Legassie في دراستها الموسومة بـ"اختراع السفر في العصور الوسطى"، بقولها: "إن أحد الاتجاهات الواضحة التي بزغت بين عامي ١٣٣٠م و١٥٠٠م هو إعادة اكتشاف المناطق عبر الطريق إلى القدس ... ونتج هذا التطور عن عدة عوامل؛ إذ وفرت الرحلة البحرية إلى الأراضي المقدسة خيارًا أسرع وأكثر أمانًا من الرحلة البرية، كما أن دخول تجار أيبيريا وإيطاليا في اتفاقيات تجارية مع الحاكم المسلم أدى إلى استقرارهم بأعداد كبيرة في المدن الخاضعة لسيادته، وأسهم في إقامة كنائس ومشافي ومجتمعات مسيحية لاتينية ومصالح تجارية عبر البحر المتوسط، وهذا كله شكل مصدر جذب لرحلات الحجاج الأوروبيين وكفل لسفنهم المتجهة إلى القدس التوقف على طول الطريق للإمداد والتموين" (Legassie, 2017: 152).

ولا ريب في أن اختيار عام ١٣٥٠م كبداية لهذه التطورات لا يخلو من دلالة، ولعله يقود إلى أحد أهم العوامل الحاسمة الأخرى لها؛ وهو إضفاء الطابع المؤسسي على رحلات الحج الأوروبي إلى القدس؛ ففي ثلاثينيات القرن الرابع عشر منحت السلطات المملوكية هيئة رهبان الفرنسيسكان (van Eck, 2017: 393) في القدس الامتياز الحصري بالإشراف على الحجاج الأوروبيين إلى المزارات المسيحية بفلسطين (Legassie, 2017: 112). وفي عام ١٣٤٢م صدر مرسوم بابوي بمنحهم رسميًا امتياز "الوصاية الدينية" على المزارات المسيحية في فلسطين، والمعروف بـ "حراسة الأراضي المقدسة" *Custodio terrae sanctae*، بما في ذلك مهام الضيافة المنظمة للحجاج الأوروبيين وإرشادهم، وتوفير الأدلة والكتيبات، والإشراف على جولاتهم عبر هذه المزارات (Moore, 2017: 118f). ومنذئذ صار الفرنسيسكان المسؤولين فعليًا أمام السلطات المملوكية عن سلوك الحجاج الأوروبيين في فلسطين(Webb: 29).

كذلك شهدت ذات الفترة ذروة النفوذ التجاري لمدينة البندقية في سواحل مصر والشام بعد سلسلة من الاتفاقيات التجارية أبرمتها مع سلاطين المماليك، ومُنحت بمقتضاها امتياز النقل الحصري لحجاج أوروبا من البندقية إلى ميناء يافا (Casola: 14f). وعلى هذا ظهر ما يمكن وصفه برحلات الحج الجماعي النظامية ذات الطابع المؤسسي، صارت الرحلة البحرية من البندقية إلى يافا هي القناة الرسمية للحج الأوروبي إلى القدس، وفيها تشرف البندقية على عمليات نقل الحجاج بحرًا ذهابًا وعودة، بينما يتولى الرهبان الفرنسيسكان مسئولية استقبالهم منذ رسو سفنهم والإشراف على زياراتهم داخل فلسطين حتى مغادرتهم يافا في رحلة عودتهم على متن السفن إلى البندقية (Webb :29, 116). ومع التسهيلات والعروض الجاذبة التي قدمتها البندقية للترويج لعمليات النقل البحري للحجاج إلى يافا، صار هذا الطريق البحري –الرسمي- هو الأكثر جذبًا وأمنًا، خصوصًا مع إتاحة ما أطلق عليه الباحثون الغربيون "حِزَم" الأسعار المتفاوتة التي تتناسب مع مختلف القدرات المالية للحجاج الأوروبيين (Zieman, 2001: 239). وهذا بدوره أدى إلى انخفاض أسعار الرحلة وجعلها في متناول الجميع، أغنياء وفقراء، رجال ونساء. ويوصف لاديش هذا التطور باستخدام مصطلح "دمقرطة" الحج؛ فوفقًا لقوله: "من منتصف القرن الرابع عشر فصاعدًا شد الحج الأوروبي نوعًا من الديمقراطية الاجتماعية والنوعية [أي الذكور والإناث]، وصارت القدس وجهة لحج الأغنياء والفقراء والرجال والنساء على حد سواء من جميع أنحاء أوروبا" (Ladić, 2014: 103)، أو كما وصفتها مارجريت زيمان Margaret Zieman بأنها غدت "رحلة الجذب السياحي الأولى في أواخر العصور الوسطى" (Zieman, 2001: 255).

هدف ومنهج الدراسة:

في الوقت الذي كانت هذه الرحلات الجماعية المنظمة تتم تحت حماية الدولة، الأمر الذي جعلها على حد قول جاك هيرس Jacques Heers "الرحلة الوحيدة التي يمكن أن تتم دون مفاجآت كبيرة". يستطرد جاك هيرس قائلًا: "فهي رحلة كانت تبدأ من البندقية في شكل قوافل منتظمة مرة أو مرتين سنويًا، وتقلع من هناك تحت مسؤوليتها وإشراف متخصصين في نقل الحجاج إلى يافا، وتُراقب عن كثب من قبل موظفين مخصصين لهذه المهمة، من بينهم متعددي اللغات والتراجمة، مع بيان واضح بالتكلفة والأسعار والإعاشة على متن السفينة والطعام. وأخيرًا تعهدات بضمان سلامة المسافرين وإمدادهم... وكان هذا النوع من الرحلات الجماعية المنظمة بكل التفاصيل مبعثًا للطمأنينة والثقة ومحيدًا للمجازفة والمغامرة" (Adorno: 2). كان الخروج عنها التفافًا على المؤسسية وضربًا من المخاطرة تقع مسؤوليته على المسافر وحده؛ فعقود السفر التي أبرمتها البندقية مع المسافرين الأوروبيين قبل مغادرتهم ميناءها نادرًا ما تضمنت زيارة المزارات المسيحية خارج فلسطين، خصوصًا في مصر، ولم يكن من مسؤولية رهبان الفرنسيسكان مصاحبة أولئك الراغبين في زيارة دير سانت كاترين بجبل سيناء؛ ومن ثم كان الإقدام على مثل هذا النوع من الرحلات

يتم بشكل فردي دون إشراف رسمي أو مسؤولية حكومية، الأمر الذي كان يترتب عليه مخاطر قد تهدد حياة المسافر ذاته. ورغم أن عددًا من الباحثين الحديثيين أشار بإيجاز –وعلى نحو عرضي- إلى إحجام أكثر حجاج هذه الفترة عن السفر عبر مصر، خصوصًا إلى جبل سيناء، وأرجعوا ذلك إلى مشقة وخطورة الطريق، إلا أنهم لم يوضحوا طبيعة هذه المشقة وتلك الخطورة في ضوء ما دونه بعض من أولئك الحجاج في يومياتهم؛ فوفقًا لقول سكوت ويستريم: "لم يتمكن أكثر حجاج العصور الوسطى إلى الأرض المقدسة من زيارة دير سانت كاترين في جبل سيناء، إذ كان الطريق شاقًا وخطيرًا، وكان الأمر يتطلب عادة تصريحًا من السلطات المسلمة، ومن ثم اعتمد على الاستقرار السياسي. ونادرًا ما اشتملت حزم رحلات الحج السياحية التي نظمتها البندقية على هذه الرحلة الجانبية غير المربحة والتي تستغرق وقتًا طويلًا". (Westrem, 2001: 239).

ورغم خطورة هذه الرحلة ومشقتها إلا أن نفرا قليلا من الحجاج اختاروا خوضها بغية الوصول إلى جبل سيناء، واتخذوا لذلك سبيلين: إما بالتزام الرحلة البحرية النظامية والرسمية من البندقية ليافا، ثم الخروج عنها -بعد زيارتهم للقدس- بالسفر عبر الطريق من غزة إلى القاهرة، ثم عبور الصحراء إلى جبل سيناء، كما فعل البلجيكي جوس فان غيستيل Joos van Ghistele عامي ١٤٨٢-١٤٨٣م، والألماني برنارد بريدينباخ Bernard Breyedenbach عام ١٤٨٣م، والبندقي فرانسيسكو سوريانو Fransesco Suriano عام ١٤٩٤م. وهم الرحالة الذين تم توظيف يومياتهم في موضوع البحث الحالي. أما السبيل الثاني فكان بسلوك الرحالة منذ مغادرتهم أوروبا مسارًا مغايرً تمامًا لهذه الرحلة. ومن بين القلائل الذين اختاروا منذ البداية المغامرة باتخاذ الخيار الأخير البلجيكي أنسيلم أدورنو Anselm Adorno الذي انطلق من جنوة على متن سفينة تجارية أبحرت بمحاذاة الشاطئ الجنوبي للبحر المتوسط إلى تونس، ومنها إلى ميناء الإسكندرية عام ١٤٧٠م (Adorno:.1)، والألماني أرنولد فون هارف Arnold von Harff الذي غادر البندقية على متن سفينة تجارية أبحرت إلى رودس ومنها إلى الإسكندرية عام ١٤٩٧م (von Harff: 89, 92). وباستثناء أدورنو وفون هارف لم يعثر الباحث إلا على حالة وحيدة لرحالة (حاج) اختار الإسكندرية كأول محطة له في رحلته إلى القدس خلال نصف القرن الأخير من العصر المملوكي، وهي حالة الألماني مارتن بومجارتن Martin Baumgarten عام ١٥٠٧م. صحيح أن الفرنسي جان ثينو Jean Thenaud زار مصر عن طريق الإسكندرية عام ١٥١٢م، إلا أنه وفد إليها في مهمة دبلوماسية. وقد اعتمد البحث على كتابات كل منهما.

ومبررات تناول الدراسة الحالية لتجربة الرحلة عبر مصر من خلال يوميات هذين الرحالين لا تكمن فحسب في أوجه التشابه بينهما، والكامنة في معاصرة كليهما لنصف القرن الأخير من عصر المماليك الجراكسة، أو في اختيارهما الخروج عن الطريق التقليدي للحج الأوروبي إلى القدس وتفضيلهما الرحلة عبر مصر، من الإسكندرية إلى القاهرة

فجبل سيناء، أو في انتمائهما إلى الطبقة النبيلة ذات المقدرة المالية لخوض مثل هذه المغامرة، بل تشمل أيضًا أوجه الاختلاف في هاتين التجربتين من زاويتين: تتعلق الأولى بكم المحتوى الذي قدمه كل منهما لوصف تجربته الخاصة، أما الثانية فتتصل بنوعية هذه التجربة وما تخللها من نجاحات أو إخفاقات. وعند مناقشة هذين الاختلافين: الكمي والكيفي، من المهم الوضع في الاعتبار أن لهما محددات أساسية، يكمن أهمها في "الهدف من الكتابة".

إن القارئ ليوميات كل من أدورنو وفون هارف يتولد لديه من الوهلة الأولى انطباع بأنه إزاء باعثين للكتابة متقاربين إلى حد ما، أولهما يتعلق بالرغبة في إنتاج عمل يُهدى إلى الحاكم، وثانيهما تقديم ما اعتبره كل منهما إسهامًا مفيدًا في الخبرات الأوروبية المتراكمة عن رحلات الحج إلى مصر والشام. لقد أهدى أدورنو يومياته إلى سيده جيمس الثالث James III ملك إسكتلندا (١٤٦٠-١٤٨٨م) (Adorno: 31, 33)، مثلما أهدى فون هارف رحلته إلى أميره وليم الرابع William IV دوق جوليتش Jülich (١٤٥٥-١٥١١م) وزوجته (von Harff: 1). وفي الوقت الذي أوضح أدورنو أن الهدف من إحجامه عن اتخاذ "مسار الرحلة الأكثر اعتيادًا وقِصرًا"، وتفضيله تلك "بالغة الطول"، هو الرغبة في "اكتشاف الأراضي والبحار المختلفة وعادات البشر المختلفة ... ومواجهة الأخطار العديدة التي تجعل الرجال أكثر حكمة" (Adorno: 31)، أكد فون هارف على أن "هذا الكتاب سيجد فيه المرء دليلًا مناسبًا وثقة"، وأن هدفه هو "وصف رحلتي من بلد لأخر ومدينة لأخرى وقرية لأخرى، ومن يوم لأخر، ولغة لأخرى، ومعتقد لأخر، مع كل ما رأيته وخبرته من المدن والأحياء وعادات الناس ... بحيث إن أي شخص يفكر في القيام برحلة حج كهذه، يمكنه تصفح هذا الكتاب، ويتخذه بامتنان دليلًا موثوقًا به"(von Harff: 2, 4). ولما كان الباعث على الكتابة محددًا أساسيًا لطبيعة المحتوى، فإن الاختلاف الكمي والنوعي في سرد التجربة الذاتية لكل من أدورنو وفون هارف مرده إلى أن الأول كان مهتمًا بوصف مشاهداته وتجربته على حد سواء، بينما كان الثاني أكثر شغفًا بوصف مشاهداته في حين كان مقتضبًا في تسجيل تجربته الخاصة، الأمر الذي قد يولد لدى القارئ لهما انطباعًا ظاهريًا بأنه أمام تجربتين متباينتين. قد يكون من الحري بنا هنا اقتباس مقولة فيبر: "لم يكن الرحالة يكتب كل ما يراه أو يفعله خلال رحلته، بل أن روايته تعكس ما ظن أنه جدير بالمعرفة والإبلاغ. ومن ثم فإنه أثناء جمعه للمعلومات لتدوينها، كان في الغالب يضع نصب عينيه حاجات قرائه" (Weber, 2001: 47). ولعل اختلاف اهتمامات كل من أدورنو وفون هارف يتضح في حرص الأول على عدم الإسهاب في وصف ما يراه معروفًا أو غير ضروريًا للقارئ؛ مثلًا تجاهله وصف مدن شمال إيطاليا التجارية بقوله: "وبلغنا روما في ١٨ أبريل بعد أن عبرنا أقاليم عدة هي البندقية وبيزا وميلان، تلك التي أخبرك بها رعايا مملكتك الذين يذهبون إليها للتجارة. ولذا لن أتحدث عن هذه الأقاليم المعروفة، وسأبدأ بروما". بينما يظهر اهتمام فون هارف بوصف مشاهداته في المدن التي زارها، وإعراضه عن تسجيل كل ما هو شخصي، في اقتضابه الشديد عند وصف

تجربة رحلته البحرية على متن السفينة من البندقية إلى الإسكندرية، وذلك بقوله: "لن أصف جميع الأخطار والمغامرات التي حاصرتنا في البحر ليلًا ونهارًا، حيث أن شخصًا آخر يبحر في ذات المسار، وفي نفس الوقت أو المكان، قد يصادف طقسًا أفضل أو أسوأ مما صادفته. لذا سأصف المدن والعديد من الموانئ التي تقع على اليسار على البر". (von Harff: 72)

وبأي حال، فإن قراءة متأنية في تجربة فون هارف المقتضبة، ومقاربتها بتلك الخاصة بأدورنو، يمكن أن تساعدنا في تكوين صورة واضحة عن تجربة الرحلة عبر مصر خلال نصف القرن الأخير من العصر المملوكي (١٤٧٠-١٥١٧م)، مع الوضع في الحسبان أهمية مقارنتهما بالتجارب الأخرى التي دونها رحالة آخرون معاصرون لذات الفترة. وعلى ذلك فإن الغاية من الدراسة الحالية ليست رصد مشاهدات هذين الرحالين وما دوناه من وصف لطبوغرافية مدن مصر ومزاراتها الدينية وعناصر سكانها وعاداتهم وتقاليدهم، أو وصف القصر السلطاني وحياة طبقة المماليك، ومقارنة ذلك كله بمشاهدات الرحالة الأخرين المعاصرين، وهو الاتجاه الذي تبنته أكثر الدراسات العربية التي تناولت كتابات الرحالة الأوروبيين –كما سيظهر في عرض الدراسات السابقة-، بل تكمن في مناقشة التجربة الخاصة التي مر بها كل من أدورنو وفون هارف، ومقارنتها بغيرها من التجارب المعاصرة بهدف تفسير العوامل التي دفعت أولئك الرحالة إلى تفضيل تكبد عناء السفر عبر مصر بدلًا من الانتقال المريح مباشرة إلى القدس عبر الرحلة الرسمية المنظمة من البندقية إلى يافا، فضلًا عن رصد المصاعب والمخاطر التي واجهوها وكيف تغلبوا عليها. وبعبارة أخرى؛ إذا كانت الرحلة التي أقدم عليها كل من أدورنو وفون هارف -على حد وصف جاك هيرس لرحلة أدورنو- "تنظيم فردي" (Adorno: 3.) تقع مسؤوليته على عاتق المسافر وحده، فإن البحث الراهن يهدف إلى مناقشة ماهية المصاعب التي واجهت هذا المسافر والمخاطر التي هددت حياته وماله، فضلًا عن كيفية تعاطيه معها، بداية من الحصول على التصاريح التي تسمح له بحرية المرور، والتعامل مع موظفي الموانئ والقصر، فضلًا عن التفاوض مع بحارة القوارب النيلية ومُكَارِية الحمير والبغال وسائقي الجِمال، ومواجهة جشع المستغلين أو خطر اللصوص وقطاع الطرق، والتعاطي مع مشكلات الاختلاف اللغوي والثقافي والديني.

الدراسات السابقة:

رغم أن هناك دراسات سابقة عنيت بمناقشة محتوى كتابات الرحالة الأوروبيين خلال العصر المملوكي، إلا أن هذا الاهتمام انصب بالكامل على ما قدمه أولئك الرحالة من مشاهدات تصف المدن المصرية وأعداد وعناصر سكانها والعادات والتقاليد المجتمعية (السلاوي، ٢٠١٢: ٢١١-٢٤١) وحياة ورسوم قصر السلطان المملوكي وطبقة المماليك

الحاكمة، وذلك عبر العصر المملوكي بأكمله أو أيًا من شطريه (دوب، ١٩٥٢: ٦٣-٨٠؛ علي، ٢٠١٤: ١٠٥-١٤٨)؛ محمد، ٢٠١٩؛ سبيمان، ٢٠١٣: ٣٧-٨٩)؛ أي أنها ركزت على الجانب الوصفي من هذه الكتابات دون إبراز ومناقشة ما تضمنته من إشارات إلى التجارب الخاصة التي خبرها أصحابها في مصر. وهناك دراسات أخرى تتناول أيضًا الجانب الوصفي في مشاهدات الرحالة الأوروبيين عبر فترة زمنية مختلفة عن الدراسة الحالية (عيد، ٢٠١٧). كذلك لا توجد –على حد علم الباحث- دراسة ناقشت ما جاء في يوميات فون هارف أو أنسيلم أدورنو، خصوصًا من زاوية تجربتهما الخاصة في مصر.

وفي هذا السياق قدم أ.د. فايز نجيب إسكندر دراسة قيمة عن مدينة القاهرة في عصر المماليك الجراكسة في ضوء رحلة فون هارف (إسكندر، د.ت)، ناقش فيها وصف الأخير للقصر السلطاني ومراسمه، ولمحة عن الاضطرابات السياسية في عهد محمد بن قايتباى، وطبقة المماليك وطباق قلعتهم، والقاهرة وشوارعها ومنازلها ومساجدها ومناخها ونسائها، وطباخيها وخبازيها وسقائيها ولصوصها ومكاريتها ودوابها؛ وهي موضوعات تبتعد بالكلية عن موضوع البحث الراهن. واعتمدت هذه الدراسة على نهج المقارنة بين فون هارف وغيره من الرحالة المعاصرين، خصوصًا البلجيكي جوس فان غيستيل (١٤٨٢-١٤٨٣م) والإيطالي فرانسيسكو سوريانو (١٤٩٤م) والفرنسي جان ثينو (١٥١٢م)، وهذا النهج كان أكثر وضوحًا وإسهابًا في وصف كل منهم لمراسم القصر السلطاني والجامكية. ورغم أن هذه الدراسة اعتمدت على كتابات رحالة سابقين على فون هارف بأكثر من قرن ونصف، أمثال الألماني وليم فون بلودينسيل Wilhelm von Boldensele (١٣٣٢-١٣٣٣م) وسيمون سيمونيس Symon Semeonis (١٣٢٣م) (إسكندر، د.ت: ٢١)، لم تشر من قريب أو بعيد إلى رحلات أخرى مهمة معاصرة لفون هارف، مثل تلك الخاصة بالبلجيكي أنسيلم أدورنو (١٤٧٠م)، والتي تشكل –إلى جانب رحلة فون هارف- مصدرًا أساسيًا للدراسة الراهنة، وبالألماني مارتن بومجارتن (١٥٠٧م). ومع أن الدراسة الحالية تختلف إلى حد بعيد في موضوعها وطرحها ومادتها المصدرية، تظل دراسة أ.د. فايز إسكندر، بقيمتها العلمية وإشاراتها العرضية المتناثرة إلى أمور تتعلق بالتجربة الخاصة لفون هارف في مصر، مرجعًا مهمًا يمكن الإفادة منه كما سيتضح في الحواشي اللاحقة للدراسة الحالية.

أولاً. قرار السفر إلى مصر:

في الوقت الذي يجد القارئ ليوميات كل من أدورنو وفون هارف أوجه شبه عديدة في الظروف المحيطة بخروج كل منهما في رحلة الحج، والطريق الذي سلكاه حتى وصولهما إلى مدينة روما، يلحظ أن هناك أوجه اختلاف في المبررات التي دعتهما إلى اتخاذ وجهتهما نحو مصر. لقد بدأ أدورنو رحلته في التاسع عشر من فبراير ١٤٧٠م بخروجه من مسقط

رأسه في بروج Bruges (عاصمة إقليم غرب الفلاندرز، في الجانب الفلمنجي من بلجيكا) على رأس قافلة من الحجاج، من بينهم ابنه جون، بهدف اتخاذ طريق الرحلة التقليدي من البندقية إلى يافا. إلا أنه بمجرد وصولهم إلى روما وتلقيهم تصريحًا بالسفر إلى القدس من البابا بولس الثاني Paul II (١٤١٧-١٤٧١م) (Adorno: 39)، انفصل أدورنو مع أربعة من مرافقيه عن القافلة متوجهين إلى جنوة لبدء رحلتهم على متن سفينة تجارية جنوية في السابع من مايو (Adorno: 1,3,53).

وعلى نفس الشاكلة أيضًا خطط فون هارف للخروج من مسقط رأسه بكولون مع بعض النبلاء الذين كانوا قد وعدوه بمرافقته إلى البندقية لاتخاذ رحلة الحج البحرية إلى يافا، إلا أن مخالفة الأخيرين لاتفاقهم معه اضطره إلى الانتظار حتى حالفه الحظ برفقة اثنين من تجار كولون المتجهين إلى البندقية (von Harff: 2,4). وبعد أن زار روما، وتمكن من لقاء البابا ألكسندر السادس Alexander VI (١٤٩٢-١٥٠٣م) شخصيًا والحصول على تصريح خطي بالحج (von Harff: 40)، توجه إلى البندقية، وهناك اتخذ قراره بالعدول عن استقلال سفينة الحجاج المتجهة إلى يافا، والارتحال بدلًا من ذلك على متن إحدى سفن البندقية التجارية القاصدة ميناء الإسكندرية (von Harff: 50, 69). وهنا تُثار بعض التساؤلات: ألم يكن كل من أدورنو وفون هارف على دراية بتبعات تغيير مخططهما بالعدول عن السفر عبر رحلة الحجاج "الجماعية والنظامية والرسمية" إلى يافا، واتخاذ مسار الرحلة "الفردية" إلى الإسكندرية؟ وإذا كانت الإجابة بالإيجاب؛ فما المبرر الذي دفع كلا منهما إلى ذلك؟ وهل كان الأمر بهذه البساطة؟ أم كانت هناك عوامل مساعدة محددة شجعتهما على اتخاذ مثل هذا القرار؟

لاريب في أن مجازفة الخروج عن مسار رحلة الحج التقليدية من البندقية إلى يافا والسفر عبر مصر كانت معروفة في زمن أدورنو وفون هارف، والمطالع لكتابات الرحالة السابقين عليهما يجد إشارات تحذيرية في هذا الصدد؛ فمثلًا قدم البريطاني السير جون ماندیفیل John Mandeville –الذي يسبقهما بأكثر من قرن- قائمة بالأسباب التي قد تدفع الحجاج إلى نبذ فكرة المرور عبر مصر، بقوله: "لأن بعضهم يفتقر إلى المال الكافي، والبعض الأخر إلى عدد كاف من المرافقين، والبعض لا يتحمل مشقة طول السفر، وأخرون يخشون كثيرًا من مخاطر الصحراء، أو لأنهم في عجلة من أمرهم للعودة إلى أوطانهم، إما توقًا لرؤية زوجاتهم وأولادهم، أو لأسباب أخرى وجيهة تحتم عليهم العودة إلى ديارهم سريعًا" (Mandeville: 83). كذلك من المهم الوضع في الاعتبار أن كثيرًا من كتب هذه الرحلات، فضلًا عن الكتيبات الإرشادية التي تُباع للحجاج قبل انطلاقهم في رحلة البندقية-يافا، ذاع صيتها في أنحاء أوروبا خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين. وقد كان ظهور الطفرة الواضحة في عدد يوميات الرحلات خلال القرن الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين –كما تشير ليجاسي Legassie- يرجع إلى تزايد انتاج الورق في مدن إيطاليا التجارية،

ومن ثم ظهور أنماط جديدة في صناعة الكتب، بما في ذلك دفاتر اليوميات (Legassie:134-135, 152). ويبدو أن عملية طباعة ونشر مثل هذه الرحلات والكتيبات لم تكن تستغرق وقتًا طويلًا؛ فإرشادات الرحالة الإيطالي كافاليير سانتو براسكا Cavalier Santo Brasca، التي دونها وقت حجه إلى القدس عام ١٤٨٠م طُبعت في العام التالي مباشرة، ثم أُعيد نشرها ثانية عام ١٤٩٧م (Casola: 9-10). والأكثر احتمالًا أن طبع ونشر هذه الرحلات والكتيبات الإرشادية كان هدفه نقل الخبرات السابقة، أو تشكيل ما يمكن تسميته بـ "المعرفة المسبقة"، والتي اعتمد عليها المسافرون، كما يقترح إيفان إيجناتوف Ivan Ignatov، في رسم تصوراتهم عن الشرق؛ إذ يقول: "شكل المسافرون الأوروبيون في رحلاتهم تصورات معقدة ودقيقة للشرق من خلال لقاءاتهم مع الشعوب والأماكن الآسيوية. وكانت المعرفة الموجودة مسبقًا عن الشرق جزءًا مهمًا من هذه العملية. نظرًا لأنهم كانوا يزورون مكانًا غير مألوفًا، لكنه ليس مجهولًا تمامًا. وقد اعتمد المسافرون دائمًا على المعرفة المسبقة في تكوين تصوراتهم عن الشرق. ومع ذلك، تأثروا بعمق على مدار رحلاتهم بما واجهوه بالفعل" (Ignatov, 2013: 120).

ويبدو واضحًا من يوميات أدورنو أنه كان مدركًا تمامًا لمجازفته بالخروج عن طريق الحج التقليدي واتخاذه طريق مص؛ إذ إنه أكد على أن الطريق البحري عبر البندقية إلى يافا هو "الممر الأكثر شيوعًا وتكرارًا"، وخاطب قراءه قائلًا: "إنني أنصح رسميًا جميع أولئك الذين يقدرون الحياة من الانطلاق في رحلات الحجاج التي تبدأ في البندقية كل عام"، كما أوضح سبب انفصال رفاقه الذين فضلوا بدء رحلتهم من البندقية بقوله: "لقد رافقونا من بروج إلى روما، بقصد الاستمرار معنا، لكن عندما عرفوا أننا لا نريد القيام بالرحلة عبر طريق الحج التقليدي، وهو الممر الأكثر شيوعًا وتكرارًا، غادرونا خشية اتخاذ طريق مخالف للمألوف" (Adorno: 55). أما فون هارف، فرغم أنه لم يقدم أية إشارة تتعلق بإدراكه مخاطرة الخروج عن الطريق التقليدي والاتجاه صوب مصر مباشرة، إلا أن القارئ ليومياته يلحظ من الوهلة الأولى أنه أمام شاب مغامر في سن الخامسة والعشرين شغوف بالمعرفة والتدقيق والتقصي عن كل صغيرة وكبيرة تتعلق بمشاهداته في سائر محطات رحلته؛ ونبيل بهذه الشاكلة من المستبعد أن يتخذ قرار الذهاب إلى مصر دون "معرفة مسبقة"؛ ففي الوقت الذي لم يذكر أدورنو –مثلًا- شيئًا عن البندقية، واكتفى بتقديم لمحة مقتضبة عن جنوة وميناءها وبعض كنائسها، جاب فون هارف في شوارع وميادين البندقية وكنائسها وفنادقها ومنازلها، وقدم وصفًا تفصيليًا لها، وكثيرًا ما يذكر: "سألت بندقيًا محترمًا" و"أخبرني أحدهم" و"أخبرني رجل محترم" و"أخبرني تاجر" (von Harff: 50-77, esp. 56, 57, 62, 65).

ورغم هذا كله، لم يوضح أدورنو صراحة سبب خروجه عن هذا الطريق "التقليدي" و"المألوف" وتفضيله بدء رحلته من جنوة إلى الإسكندرية، وكل ما ذكره في هذا الصدد أن الرحلة النظامية من البندقية إلى يافا لم تكن خالصة من المخاطر

أيضًا؛ فنجده بعد أن أسدى النصيحة لقرائه المحتملين "الذين يقدرون الحياة" بسلوك مسار هذه الرحلة، استطرد بقوله: "ومع ذلك فإنه بسبب ضيق الأماكن التي يجتمع فيها عدد من الناس من مختلف الأمم؛ فإنهم ينقلون الأمراض لبعضهم البعض عن طريق أنفاسهم. في الواقع، مات هذا العام تسعة وأربعون حاجًا وأكثر، أربعة منهم من رفقتنا" (Adorno: 55). على أن هذا لا يمكن اعتباره سبب إقدام أدورنو بقدر ما هو دفاع عن اختياره لكون الخطر واقعًا في الحالتين.

وعلى النقيض من أدورنو، صرح فون هارف بمبرر اتخاذه الطريق البحري من البندقية إلى الإسكندرية؛ فوفقًا لقوله: "كان مجلس الشيوخ البندقي يرسل سنويًا أربع عشرة سفينة إلى سائر الأقطار لحمل البضائع إليها وجلب أخرى: اثنتان للإسكندرية ... واثنتان ليافا؛ والأخيرتان هما اللتان اعتاد الحجاج استقلالهما في رحلتهم السنوية إلى القدس ... وعندما سمعت بأن هناك سفينتين متوجهتين إلى الإسكندرية، تاقت نفسي إلى الذهاب لجبل سيناء" (von Harff: 69). وعلى ذلك يمكن القول بأن كل من أدورنو وفون هارف –شأن غيرهم من الحجاج الأوروبيين الذين زاروا مصر- أرادا ببساطة رؤية المزارات المسيحية في مصر، خصوصًا دير سانت كاترين بجبل سيناء، وإن كان هذا لا يمنع أنهما رغبا أيضًا في أن تشكل مصر، من الإسكندرية إلى جبل سيناء، جزءًا من يومياتهما.

ويبدو أن الأمر لم يكن بمثل هذه البساطة، بمعنى أنه لم يكن خاضعًا لرغبات الرحالة، خصوصًا أن نيويت Newett –في الدراسة القيمة التي ضمنتها في مقدمة ترجمتها لرحلة الإيطالي كانون بيترو كاسولا من البندقية إلى يافا في عام ١٤٩٤م- عرضت لعدد من التشريعات التي أصدرها مجلس الشيوخ البندقي للحد من ظاهرة استقلال الحجاج لسفن المدينة التجارية؛ ففي عام ١٣٩٨م أقر قانونًا يحظر على أي سفينة تجارية متجهة إلى الإسكندرية أو بيروت حمل حجاج أجانب، وفرض على قبطانها غرامة قدرها مائة دوقة والسجن المشدد لستة أشهر، واستثنى هذا القانون الحجاج البنادقة ورعايا المدينة الأخرين. وقد حاول عضو مجلس الشيوخ ماجيور كونسيليو Maggior Consiglio الحصول على تصويت من المجلس بإلغائه في عام ١٤٠٠م، لكنه فشل (Casola: 45-46). إلا أن ظهور حالات لاستثناء بعض الأمراء والنبلاء الأجانب من قبل مجلس الشيوخ نفسه (Casola: 46-48) دفعت بعض أصحاب السفن التجارية إلى انتهاكه، الأمر الذي أدى إلى ظهور الحاجة لإقرار تشريع جديد في عام ١٤٠١م ضد من يجرؤ على حمل حجاج على متن سفينته التجارية دون الحصول على ترخيص بذلك (Casola: 49-50).

ويبدو أن فون هارف أحد النبلاء الذين حالفهم الحظ في الحصول على استثناء من هذا الحظر؛ فوفقا لروايته تمكن عن طريق بعض التجار الألمان من الوصول إلى الدوق البندقي الذي منحه تصريحًا إلى الوصي على السفينة التجارية، وتوصية بالرعاية. وفي ذلك يقول فون هارف: "وعندما قدمنا الخطاب إلى الوصي، تلقانا بكل احترام، ومنحنا

غرفة خاصة، ورتب لنا تناول الطعام على مائدته مع التجار الأخرين" (von Harff: 71). وفي الوقت الذي يبدو أن فون هارف كان في حاجة إلى مثل هذا التصريح للسماح له باستقلال سفينة تجارية من البندقية، أغلب الظن أن أدورنو الذي غادر على متن سفينة جنوية لم يكن بحاجة إلى مثل هذا التصريح، خصوصًا في ظل غياب المعلومات عن حظر مماثل لما اتخذته البندقية منذ عام ١٣٩٨م، سواء في جنوة أو في مصر؛ فإشارة أدورنو إلى ضرورة أن يعلن الحجاج عن هويتهم عند وصولهم إلى الإسكندرية توحي بأن الأمر كان اعتياديًا (Adorno: 171). ومع ذلك لم تخل حالة أدورنو أيضًا من توظيف للعلاقات الشخصية، وهنا من المهم الانتباه إلى أن عائلة أدورنو جنوية الأصل أقامت في بروج وظلت تحتفظ بعلاقات وثيقة بالوطن الأم (Adorno: 51, 53). ولعل هذا يفسر لماذا اختار أدورنو ابتداء رحلته البحرية من جنوة وليس من البندقية. وبأي حال فإن أثر العلاقات الشخصية على مجريات رحلتي أدورنو وفون هارف، خصوصًا الأخير، ظاهر للعيان بالدرجة الذي تستدعي إفراد عنصر مستقل لمناقشته. غير أنه سيتم تأجيل ذلك إلى ما بعد مناقشة "أثر المقدرة المالية في الرحلة".

ثانيًا. نفقات الرحلة:

من البدهي أن مسار أي رحلة تحدده المقدرة المالية لصاحبها، وأنها أحد المحددات الأساسية التي أثرت في قرار أدورنو وفون هارف باتخاذ طريق مصر. وكما أُشير سابقًا –على حد قول الرحالة البريطاني السير جون ماندیفیل John Mandeville (١٣٢٢م)–كان الافتقار إلى "المال الكافي" أول أسباب إعراض الحجاج عن المرور عبر مصر (Mandeville: 83)؛ فلا ريب في أن اتخاذ الحاج وجهة إضافية إلى رحلته الأساسية للقدس كان يشكل عبئًا ماليًا لم يستطع الكثيرون تحمله. وحتى يمكن تخيل حجم هذا العبء من المهم مقارنة متوسط النفقات التي قد تفرضها هذه الرحلة إلى مصر بنظيره الذي ينفقه الحاج المسافر من البندقية إلى يافا، وذلك في ضوء الأرقام المتاحة في يوميات الرحالة المعاصرين لنصف القرن الأخير من العصر المملوكي.

ولنبدأ بالتأكيد على ما أُشير إليه قبلًا من أن احتكار البندقية لنقل الحجاج في الرحلة النظامية من البندقية إلى يافا دفعها إلى الترويج لها بتقديم عروض و"حزم" مخفضة تتناسب مع مختلف شرائح المجتمعات الأوروبية؛ الأمر الذي أدى بدوره إلى انخفاض التكلفة عن ذي قبل (Webb: 29; Zieman: 58). وحتى تتضح الصورة يكفي معرفة أن تكلفة الحج إلى القدس في القرن الثاني عشر الميلادي كانت تبلغ نحو مائتي دوقة (Savage, 1977: 43)، ورغم مرور نحو ثلاثة قرون تالية، لم يشهد هذا الرقم أي ارتفاع، بل لعله انخفض، كما تشير المصادر الأصلية وكتابات الرحالة في النصف الأخير من القرن الخامس عشر الميلادي؛ ففي كتيبه الإرشادي ينصح براسكا Brasca (١٤٨٠م) الحاج المتجه إلى يافا بحمل مائتي دوقة، أو مائة وخمسين دوقة على الأقل: "مائة يحتاجها لرحلته، حتى لا يفتقد الرجل

المحب للحياة، أو المعتاد على سعة العيش في منزله، إلى شيء. والخمسون الأخرى احتياطًا للمرض أو أية ظروف أخرى طارئة" (Casola: 10). ويستطرد براسكا بأن هذه التكلفة تشمل أجرة السفينة قائلًا: "رابعًا: ... ثم يجب أن يذهب إلى البندقية، فمن هناك يمكنه اتخاذ طريقه بشكل أكثر ملاءمة من أي مدينة أخرى في العالم. ويتم كل عام تجهيز سفينة واحدة فقط لهذه الخدمة؛ ورغم أنه قد يجد سفينة أخرى مبحرة أكثر رخصًا، لا ينبغي له أن يترك السفينة المخصصة للحجاج بأي حال من الأحوال. وعليه أن يعقد اتفاقًا مع القبطان، الذي عادة ما يتراوح بين خمسين وستين دوقة. ولقاء هذا السعر، يجب عليه [القبطان] نقله إلى هناك [يافا] ذهابًا وعودة، وتوفير جميع المواد الغذائية (باستثناء تلك اللازمة على البر)؛ ودفع أجرة ركوب دواب النقل في الأرض المقدسة، وكذلك دفع جميع الرسوم والمجاملات [إكراميّة]" (Casola: 10). وهناك ما يؤكد الرقم الأخير؛ فوفقًا لأول قانون يحدد الحد الأقصى للرسوم التي يدفعها الحاج لقبطان السفينة المتجهة إلى يافا، والذي أقره مجلس الشيوخ البندقي في ١٩ مايو ١٤٤١م، تم إلزام قباطين *patroni* السفن بعدم مطالبة الحاج بأكثر من خمسين دوقة (Casola: 96-71). وعلى الأرجح أن الستين دوقة التي حددها براسكا كانت الحد الأقصى لتكلفة الرحلة إلى يافا –باستثناء النفقات الشخصية للحاج وتكلفه طعامه على اليابسة وعلاجه- بالنسبة للموسرين؛ إذ إنه أتاح للفقراء بديلًا أقل تكلفة؛ فوفقًا لبراسكا: " بما أنني لا أرغب في ثني الرجال الفقراء -الذين لا يستطيعون جمع الكثير من المال- من القيام بهذه الرحلة، يمكنني أن أؤكد لهم أن القبطان عندما يعلم بأن بعض الحجاج الفقراء على استعداد للموافقة على ثلاث وثلاثين أو اثنتين وثلاثين دوقة، فإنه يقبل أن يغطي هذا المبلغ تكلفة نقلهم بحرًا واستئجار دواب النقل ودفع الرسوم والمجاملات، على أن يتحملوا هم نفقة طعام أقل تكلفة من أولئك الموسرين". (Casola: 12-13).

وحتى يمكن تصور القيمة السوقية لهذه المبالغ، أو القوة الشرائية للدوقة الواحدة، من المهم مقابلتها ببعض الأرقام التي ذكرتها كتابات الرحالة عن الأسعار والأجور وقتذاك؛ إذ يذكر فون هارف أن أجر العامل في دار صناعة السفن بالبندقية نحو أربع دوقات أسبوعيًا (von Harff: 62)، وأن الفرد في طبقة المماليك بمصر يتقاضى ست دوقات شهريًا (von Harff: 108). بينما ذكر كل من جوس فان غيستيل (١٤٨٣م) Joos van Ghistele وجان ثينو (١٥١٢م) Jean Thenaud أن أجره عشر دوقات شهريًا (van Chistele: 31; Thenaud: 49). ووفقًا لبريدينباخ Breyedenbach كان ثمن العبد الأوروبي عام ١٤٨٣م نحو عشر دوقات (Breyedenbach: 50).

وعند مقارنة الستين دوقة التي يدفعها الحاج ثمنًا لـ "حزمة" الرحلة النظامية إلى يافا بما يمكن أن يتكبد قرينه في الرحلة إلى مصر -دون الوضع في الاعتبار النفقات الشخصية (Casola: 12-13)، وبصرف النظر عن التكلفة الإضافية لرحلة الأخير الأصيلة إلى القدس- ينبغي إعادة التأكيد على أن الأخير، كـ "فرد" يتحرك خارج المنظومة الرسمية لرحلة

الحجاج الأوروبيين إلى القدس، كان عليه أن يتفاوض حول قيمة ما يدفعه لكل خدمة أو شيء يستخدمه: مع قبطان السفينة التي ستنقله، والترجمان الذي سيرافقه أثناء رحلته؛ وموظفي الموانئ والمنافذ والقصر؛ والمُكَارِية وغيرهم.

ورغم أن أدورنو كان دائم الشكوى من الأسعار الباهظة والمبالغ التي تكبدها أثناء رحلته عبر مصر إلا أنه لم يقدم إلا رقمًا واحدًا (Adorno: 209)، وفي المقابل نجد فون هارف حريصًا على تسجيل أرقام الأجور والرسوم والأسعار؛ وهو ما يساعد على مقارنة ما دفعه من مبالغ أثناء رحلته مع "حزمة" رحلات البندقية-يافا ذات الخمسين أو الستين دوقة. ويكفي للدلالة على البون الشاسع بين الرحلتين معرفة أن فون هارف تعاقد مع الترجمان -الذي دله عليه التجار الألمان في البندقية- على أن يرافقه في رحلته من البندقية إلى جبل سيناء مقابل أربع دوقات شهرياً، بالإضافة إلى تكفله طعامه وشرابه ومنحه مائة دوقة كإكراميّة (بقشيش) في نهاية الرحلة (von Harff: 69)، فإذا أُضيف إلى ذلك النفقات الأخرى التي سجلها فون هارف خلال رحلته عبر مصر - والمبينة في الجدول التالي- لصار الإجمالي نحو ١٢٩ دوقة (تفصيل هذا المبلغ كالتالي: ٦ دوقات للترجمان كأجر شهري عن الفترة من ٢٤ مايو إلى ١٣ يوليو ١٤٩٧ + ٢٣ دوقة رسوم وأجور انتقال وإكرامية + ١٠٠ دوقة هدية للترجمان).

شكل (١): جدول بنفقات فون هارف في رحلته إلى مصر

(von Harff: 71, 93, 96, 101, 134-135, 148)

المبلغ بالدوقة	الخدمة أو الرسم
٤	أجر السفينة التي حملته من البندقية إلى الإسكندرية
٢	رسم دخول الإسكندرية كتاجر
١	الإقامة في فندق البنادقة بالإسكندرية
؟	أجر المكاري الذي نقله بالحمار من الإسكندرية إلى رشيد
١	أجر القارب الذي نقله عبر النيل من رشيد إلى القاهرة
٢	رسم دخول القاهرة كتاجر
٢	أجر سائق الجمل الذي نقله من القاهرة إلى جبل سيناء
١٠-١٢	إكراميّة "بقشيش" لسائق الجمل
١	أجر سائق الجمل الذي نقله من دير سانت كاترين إلى طور سيناء

وبمقارنة فون هارف بغيره من الرحالة الذين زاروا مصر خلال نصف القرن الأخير من العصر المملوكي، يلاحظ تفرده بتسجيل أرقام معظم الأجور والرسوم التي دفعها خلال مروره بمصر. ومع ذلك فإن مقابلة هذه الأرقام بتلك القليلة الواردة –بشكل عرضي- في كتابات أولئك الرحالة تشير إلى أن رحلة فون هارف كانت الأقل تكلفة على الإطلاق، ولعلها تكشف أيضًا عن سر شكوى الأخيرين المتكررة من وطأة نفقاتهم خلال ذات الرحلة؛ ففي الوقت الذي كان أجر القارب الذي نقل فون هارف من رشيد إلى القاهرة لا يتجاوز دوقة واحدة، اضطر الألماني بريدينباخ Breyedenbach في عام ١٤٨٣م إلى دفع أجرة القارب –من القاهرة إلى رشيد- مرتين بواقع ثلاث وثلاثين دوقة (Breyedenbach: 64). وقريبًا من ذلك دفع الألماني مارتن بومجارتن Martin Baumgarten ست عشرة دوقة لنقله عبر النيل من رشيد إلى القاهرة عام ١٥٠٧م (Baumgarten: vol.1, 438). كما دفع الأخير نفس المبلغ لاستئجار ترجمان يرافقه في رحلته من القاهرة إلى جبل سيناء (Baumgarten: vol.1, 448). كذلك، في حين دفع فون هارف دوقتين كرسم دخول، بوصفه "تاجر"، لكل من الإسكندرية والقاهرة، دخل البلجيكي فان غيستيل van Ghistele (١٤٨٢م) الإسكندرية كـ "تاجر" بدوقتين (van Ghistele: 115)، بينما دفع خمس دوقات عند دخول القاهرة بعدما اتخذ الطريق إليها من غزة كـ "حاج" (van Ghistele: 16). ولا ريب في أن تباين النفقات بين فون هارف وغيره من الرحالة المعاصرين، فضلًا عن الفارق الواضح بين رسوم دخول كل من الحاج والتاجر، أمر يقود إلى التساؤل: ما الذي يدفع الحاج إلى دخول مصر كـ "تاجر"؟ هل فقط لمجرد توفير فرق الثلاث دوقات بين رسوم دخول الحاج والتاجر إلى كل من الإسكندرية والقاهرة؟ أم أن ثمة فوائد أخرى يمكن استخلاصها من خلال تجربتي كل من أدورنو وفون هارف؟

ثالثًا. الرحلة بين هويتي الحاج والتاجر:

في دراستها الموسومة بـ" حجاج مقنعون في روايات أواخر العصور الوسطى"، قدمت الباحثة الإيطالية بياتريس ساليتي Beatric Saletti نماذج عدة لحجاج في النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادي أخفوا هويتهم في فلسطين؛ فزعم أحدهم أنه شقيق قبطان السفينة التي أقلته إلى يافا، وأخر أنه مملوك في طريقه من دمشق إلى القدس ومنها إلى القاهرة، وثالث أنه مجدف بإحدى السفن الراسية في ميناء يافا (Saleti: 201-202). وتعزو ساليتي ذلك إلى أن "الجماهير لم تنظر بلطف إلى الغربيين"، وأن الأوبئة وعدم الاستقرار السياسي والمجاعات المتكررة دفعت الجماهير إلى التنفيس عن غضبها بمضايقة "الفرنجة" والاعتداء عليهم بـ "بإلقاء الحجارة والقاذورات عليهم، والضرب والبصق والصفع..." (Saleti: 202). غير أن ارتكاز طرح ساليتي على حالتي الإيطاليين ميليادوز دا إستي Meliaduse d'Este الذي تخفى في زي المماليك أثناء رحلته من دمشق إلى القاهرة مرورًا بالقدس عام (١٤٤٠م) (Saleti: 204-207)، وروبرتو دا سانسيفيرينو Roberto da Saneverino الذي تنكر في زي المسلمين في يافا عام ١٤٥٨م (Saleti:

202; 204;208)، جعلها لا تشير إلى تلك الخاصة بمصر، خصوصًا حالتي أدورنو وفون هارف، اللذان لم يزعما أنهما من المماليك أو المسلمين، بل من التجار؛ فهل ينسجم هذا الطرح مع هاتين الحالتين؟

تشير كتابات الرحالة الأوروبيين بعامة إلى الإجراءات الحكومية المشددة للكشف عن نوعية البضائع وهوية ركاب السفن التجارية بمجرد وصولها إلى ميناء الإسكندرية؛ إذ يسجل أدورنو أنه: "بمجرد دخولنا، صعد موظفو الأمير حاكم المدينة إلى سفينتنا، وتقصى عن طبيعة حمولتها واسم قبطانها، وسجل الكاتب الإجابة، وأعطاهم [القبطان] قائمة بالبضائع. وعلى الفور ربطوا الخطابات في أجنحة حمامتين زاجلتين طارتا في الحال نحو دار الأمير لتوصيلها إليه" (Adorno: 162). وقد أكد فون هارف على أن نفس الإجراء -بتفاصيله- حدث لسفينة التجار البنادقة التي كان يستقلها عندما اقتربت من الإسكندرية وقبل دخولها الميناء، وأشار بوضوح لا يقبل اللبس بأن هذا الأمير: "فتشنا وتحرى عن هويتنا وسبب قدومنا؛ فأجبنا بأننا [تجار] بنادقة ونحمل بضائع" (von Harff: 92). ولما كانت القائمة التي تتضمن هويات الركاب تطير مباشرة إلى دار حاكم الإسكندرية –وهو لا يزل على متن السفينة-، ومنه إلى القصر السلطاني في القاهرة مباشرة، فأغلب الظن أن موظفي بوابة الخروج من الميناء لم يكونوا على دراية بمحتواها. (يذكر أدورنو : "ودون تأخير قام الأمير بربطها ثانية [يقصد قائمة البضائع والأسماء] تحت أجنحة الحمامتين، وأطلقهما إلى دار السلطان في مدينة القاهرة بالغة الكبر". أما فون هارف فيقول: "وسرعان ما تصل هذه الحمامة إلى دار الأمير تحمل أخبارنا، فيرسل الأخير بدوره تقريرًا إلى السلطان. وقد أُخبرت أن هذا يحدث بذات الطريقة، أي بالحمام الزاجل، من الإسكندرية إلى القاهرة حيث قصر السلطان، لكنني لم أرى ذلك بنفسي" (Adorno: 162, von Harff: 92)

ومع ذلك؛ كانت هناك مرحلة ثانية للكشف عن هوية الوافدين على منفذ الميناء المؤدي إلى داخل المدينة؛ فوفقًا لأدورنو: "من الصعب، بل والمزعج، الدخول والخروج من المدينة لأن حراس البوابة يسألون القادمين والمغادرين عن هويتهم ومهنتهم، وماذا يحملون، وماذا سيأخذون معهم. والأكثر من ذلك أنهم يجردون الناس من ثيابهم بحماس شديد لمعرفة ما إذا كان معهم أي شيء يستحق الضريبة. ولا يوجد شيء لا يخضع للضريبة، حتى المبالغ المالية التي يحملها المرء تستحق ضريبة بمقدار ٢% (لم يشر أي من الرحالة المعاصرين لنصف القرن الأخير من العصر المملوكي، والمستخدمة يومياتهم في هذا البحث، إلى هذه الضريبة، وإنما أشاروا –كما سيُوضح لاحقًا في المتن- إلى نسبة ١٠% يدفعها الحاج قيمة أمتعته. ومع ذلك ثمة إشارة مبكرة تعود إلى عام ١٣٨٤م سجلها الرحالة الإيطالي سيموني سيجولي Simone Sigoli عند دخوله الإسكندرية؛ يقول فيها: "وقبل دخولنا المدينة، ذهبنا إلى بوابة الرسوم، حيثما يتم تفتيش البضائع، وهناك مثلنا أمام موظفين عرب كان شغلهم الشاغل البحث عن الذهب والفضة، لأن عليهما ضريبة

مقدارها ٢%". (Sigoli: 160-161). لكن بحمد الله دخلنا دون أن يتعرضوا لنا، ويبدو أنهم ظنوا أننا تجار من جنوة" (Adorno: 171). ومن المهم التوقف عند هذه الرواية لما تحمله من غموض؛ إذ كيف يمكن تصور أن أدورنو ورفاقه الأربعة تجاوزوا الحراس كتجار دون أن يُسأل أي منهم عن هويته، وذلك بالرغم من اعترافه هو نفسه بالإجراءات المشددة التي تتنافى مع إمكانية المصادفة أو "الظن" الذي يزعمه؛ فالأرجح أن أدورنو ورفاقه تعمدوا الاحتيال للتهرب من الرسوم والضرائب المستحقة على الحجاج. وهذا يمكن دعمه بإشارة لاحقة له، يصف فيها كيف أنه بعد مضي اثنى عشر يومًا في الإسكندرية "دون أن يلحظ أحد أننا حجاج، وبمجرد أن علم الأمير والموظفون الأخرون في المدينة أننا حجاج ولسنا تجار جنوية، تم استدعاؤنا، لأنه كان من الضروري أن نعلن عن ذلك إذا أردنا مواصلة طريقنا" (Adorno: 171).

وبينما كان أدورنو غامضًا في روايته، اتسم فون هارف بالصراحة منذ البداية؛ إذ أشار إلى ابتياعه زي "تاجر" فاخر من بين الحاجيات التي اشتراها في البندقية قبل انطلاق رحلته البحرية إلى الإسكندرية (von Harff: 69)، كما سجل أنه عند رسو السفينة في الميناء، مُنع ركابها من مغادرتها باستثناء القبطان وترجمانه الذي استأجره من البندقية ورافقه في رحلته، واللذان ذهبا إلى بوابة المنفذ "للحصول على تصاريح المرور التي تُمنح للتجار البنادقة" (von Harff: 93). وأغلب الظن أن مترجمي التجار الأخرين نزلوا معهما، وأن فون هارف لم يذكر ذلك لسبب بديهي وهو أنه يتحدث عن تجربته الخاصة. ومن الواضح أيضًا أن نزول ترجمانه للحصول على تصريح مرور له كـ "تاجر بندقي" يشير ضمنًا إلى وجود تفاهم بينهما حول الأمر. وبأي حال؛ نجحت حيلة فون هارف ولم يتم اكتشاف أمره، وحصل على تصريح المرور كتاجر لقاء دوقتين فقط؛ ويقول في ذلك: "ولو علموا أنني حاج لدفعت خمسة دوقات وفقدت حظوة الحاكم بخداعي"(von Harff: 93). كذلك يضيف بأنه كان لزامًا على كل وافد على المدينة أن يدفع عن أغراضه عشر دوقات عن كل مائة دوقة كـ "ضريبة للسلطان"(von Harff: 93). وقد أكد بريدينباخ هذا الأمر أثناء دخوله الإسكندرية قادمًا من رشيد عام ١٤٨٣م؛ إذ يقول: "جردونا من ملابسنا للتفتيش، بدءًا ممن هو أعلانا منزلة، ثم وضعوا أغراضنا جانبًا. وبعد التفتيش طُلب منا مبلغ يناسب قيمة أغراضنا، مع استثنائهم للرهبان ورجال الدين؛ فهم يأخذون ١٠% عن كل ما يدخل أو يخرج من المدينة" (Breyedenbach: 67). ويبدو أن إقدام فون هارف على هذه الحيلة لم يكن فقط لمجرد توفير ثلاث دوقات، هي الفارق بين رسمي دخول التاجر والحاج، أو حتى لتوفير الضريبة المستحقة على ما يحمله من أغراض، وإنما لفوائد وامتيازات أخرى لمح لها في كلمتين: "حظوة الحاكم"؛ وهي "الحظوة" التي فيما يبدو كانت تستحق المخاطرة بما يمكن أن يحل به من عقاب إذا ما انكشف أمره.

وعكس فون هارف، لم يحالف الحظ أدورنو. ورغم أنه لم يوضح الكيفية التي انكشفت بها حيلته، إلا أن إقامته

في الإسكندرية اثنى عشر يومًا ربما كانت كفيلة بذلك، بينما يبدو فون هارف أكثر حرصًا على الاختفاء؛ إذ يحدثنا أنه بعد أن أمضى يومين في فندق البنادقة، خرج برفقة التجار البنادقة في جولة عبر المدينة ثم غادر مباشرة إلى رشيد (Adorno: 93, 96). وأيًا كان سبب انكشاف أمر أدورنو؛ فما يهمنا هنا عاقبة الأمر، ووفقًا لروايته: "استدعانا الأمير، وطلب منا دفع مبلغ كبير من المال ليصدر لنا تصريح مرور [كحجاج]. وعندما قلنا له أننا لا نستطيع دفع مثل هذا المبلغ وأننا نرجو إحسانه، وإلا لن نستطيع مواصلة رحلتنا، أمر في الحال حراس البوابة بعدم السماح لنا بالخروج أو الدخول خشية أن نهرب. وهكذا أجبرنا بالقوة على إعطائه المبلغ المطلوب" (Adorno: 171). وكعادة أدورنو لم يحرص على تسجيل قيمة هذا المبلغ، وبالقطع كانت هذه القيمة تفوق بكثير الثلاثة دوقات التي تمثل الفرق بين رسمي دخول التاجر والحاج، وإلا لما كان الأمر استحق استدعاءهم من قبل الأمير نفسه، أو حتى عناء استجدائهم له. وفي هذا السياق تنبع أهمية رواية فان غيستيل (١٤٨٢م)، الذي انكشف أمره أيضًا، لكنه كان أوفر حظًا؛ ذلك لأن مفاوضه لم يكن الأمير نفسه، بل أحد مرؤوسيه.

وتبعًا لرواية فان غيستيل فإنه بلغ ورفقته إلى الإسكندرية من رشيد، ونزلوا بفندق البنادقة في ضيافة بعض تجاره "الذين أكرموا وفادتهم وأعفوهم من دفع أي شيء خلال فترة إقامتهم به"، غير أنه عند وصولهم استدعاهم ترجمان المدينة لسؤالهم عن هويتهم ومن أين وفدوا وإلى أين وجهتهم، فزعموا أنهم مجموعة من التجار قدموا من جزيرة كريت لشراء بعض البضائع. إلا أن الترجمان كشف لهم كذب زعمهم وسرد لهم محطات رحلتهم من القدس إلى القاهرة، والمدة التي أمضوها في كل مدينة، وطالب كلًا منهم بدفع خمس دوقات كرسم دخول. وهنا تدخل التجار البنادقة المصاحبين لهم لدى الترجمان؛ ولذا اكتفى الأخير بأخذ دوقتين فقط، ووعد بالتجاوز عنهم طالما تصرفوا كتجار وظل الأمر بينهم دون أن يعلم أحد به، أما "إذا فُضح أمرهم؛ فسيكلفهم ذلك عشرة أضعاف ما دفعوا" (Van Ghistele: 115).

ويبدو أن رواية فان غيستيل هذه تكشف سر استجداء أدورنو ورفاقه لأمير الإسكندرية، وتوضح قيمة "المبلغ الكبير" الذي طلبه منهم لإصدار تصريح مرور لهم كـ "حجاج"، إذ يبدو أنهم اضطروا إلى دفع عشرة أضعاف رسم دخول الإسكندرية، أي خمسين دوقة. ولا ريب في أنه "مبلغ كبير" بالفعل؛ إذ يعادل تكلفة الحج من البندقية إلى يافا، ويمثل نحو خمسة أضعاف ما يتقاضاه المملوك من أجر شهريًا. وهذا يقود إلى التساؤل: إذا كانت عقوبة إخفاء هوية الحاج تعرضه لدفع مثل هذا "المبلغ الكبير"؛ فهل كان توفير الثلاثة دوقات –الفرق بين رسم دخول الحاج والتاجر- ونسبة الـ ١٠% المستحقة عن أغراضه جدير بهذه المجازفة؟ وهل كان الأمر مرتبطا باعتبارات مادية محضة، أم كانت هناك أسباب أخرى أكثر أهمية؟ والإجابة على هذه التساؤلات قد تستدعي استحضار الطرح سالف الذكر للباحثة

الإيطالية ساليتي Saletti، والمتعلق بـ"كراهية الفرنجة" وما ترتب عليها من مضايقات ومنغصات للحجاج خلال رحلتهم (Saletti: 202)، وربط هذا بتلميح فون هارف إلى ما يتمتع به التاجر من "حظوة الحاكم"، والتي خشى فقدها حال كشف أمره (von Harff: 93). والواقع أن القارئ ليوميات أدورنو يتولد لديه انطباع بأن كشف حيلته في الإسكندرية كان نقطة تحول في تجربته اضفى عليها طابع "المأساة"؛ فمنذ ذلك الحين غلب على روايته الشكوى والتحذير من الابتزاز والتنمر وسوء المعاملة، سواء من الموظفين الحكوميين أو المترجمين الخصوصيين أو المُكَارية أو بحارة القوارب النيلية. وقد يكون من الأنسب عرض هذه التجربة مع هذ الفئات كل على حدة.

رابعًا. تجربة التعامل مع الموظفين الحكوميين:

يذكر أدورنو أنه بمجرد الكشف عن هويته الحقيقية كـ"حاج" تعرض لابتزاز من موظفي الجمارك في الإسكندرية؛ فتبعًا لقوله: "نخر موظفون آخرون عظامنا حتى النخاع، وأزعجونا باستمرار مطالبهم، وكلما تخلصنا منهم ظهر موظفون جدد، سواء أكانوا حقيقيين أم مزيفين، لطلب الحصول على المال، وكان من الضروري معارضتهم. لقد بدا من الضروري لهم ابتزاز المال من الأوروبيين، الذين اعتبروهم أعداءهم. هذا هو السبب الذي جعلنا نسعى جاهدين لمغادرة هذه المدينة بأسرع ما يمكن، لأنه كلما مر الوقت تزيد محنتنا وبؤسنا. لذلك أنصح الجميع بالابتعاد، ليس عن المدينة، بل عن هذا الصنف اللعين. لقد عانينا من الانتهاكات في كل مكان ما عانينا هنا، وكنا سنعاني أكثر بكثير لو لم نضطر إلى الدفاع عن أنفسنا، ودعمنا في ذلك التجار الجنوية والبنادقة، الذين نصحونا بمواصلة رحلتنا" (Adorno: 174-175). وتتضمن هذه الرواية ثلاثة عناصر أساسية: "الابتزاز المالي" و"العداء للأوروبيين" و"دعم التجار الإيطاليين". والواقع أن هذه العناصر متكررة في كثير من روايات الرحالة المعاصرين، باستثناء فون هارف، الذي لا نكاد نلمح في يومياته أية إشارة إلى "الابتزاز" و"العداء"، وإن كان دعم التجار الأوروبيين -وغيرهم من المقيمين ذوي الأصول الأوروبية- واضحًا تمامًا في روايته كما سيُعرض لاحقًا.

وعند التعامل مع حالة فون هارف ربما يكون من المناسب الوضع في الاعتبار أنها حالة خاصة، ذلك لأنه النموذج الوحيد الذي وصلنا لحاج نجح في قطع رحلته بأكملها وهو متنكر في هيئة التجار. ولا نصادف في يومياته أنه واجه مصاعب في الإسكندرية؛ فقد نزل مع التجار البنادقة في فندقهم (von Harff: 93) وتجول مع بعضهم في شوارع المدينة، وغادرها إلى القاهرة دون أدنى مشكلة (von Harff: 93). وفي المقابل لم يكن نموذج أدورنو وما تعرض له من متاعب أمرًا استثنائيًا؛ فبريدينباخ (١٤٨٣م)، الذي سجل تجربته مع حراس بوابات الإسكندرية عند دخوله وصحبته بعد رحلتهم القادمة من رشيد، يميز بين بوابتين: الأولى أطلق عليها "الباب الكبير"، ويقف عليها حارسان رفضا دخولهم

بالجِمال والحمير إلا بعد أن دفعوا لهما مبلغًا من المال، والثانية بوابة حديدية رفض حارسوها دخولهم وأوسعوهم ضربًا بعصيهم، الأمر الذى أدى إلى احتجازهم بعض الوقت بين البوابتين (Breyedenbach: 66). كذلك يصف بريدينباخ كيف أنه وصحبته بذلوا قصارى جهدهم قبل مغادرتهم ميناء الإسكندرية كي لا يراهم أحد فيبتزهم، خصوصًا موظفو مكاتب الجمارك الذين قد يحصلون ضريبة الـ ١٠% المفروضة على الأمتعة أكثر من مرة. وهنا أيضًا يشير بريدينباخ إلى أنهم لم يستطيعوا المرور بأمتعتهم دون تفتيش إلا بعد أن دفعوا رشوة لترجمان الإسكندرية (Breyedenbach: 76-77). وباستثناء أدورنو وبريدينباخ، لا نلمح أي ذكر لمعاملة موظفي الإسكندرية مع فان غيستيل باستثناء القصة المذكورة سلفًا بشأن زعمه بكونه تاجرا، ولا عند بومجارتن (١٥٠٧م). وبالقطع فإن هوية الفرنسي جان ثينو (١٥١٢م) كسفير تجعله خارج هذه المناقشة لتمتعه بوضعية خاصة.

ورغم أن أدورنو عندما قارن القاهرة بالإسكندرية وصف أهلها بـ "الأكثر تميزًا ومكانة"، ووجد أنهم "أفضل سلوكًا وأكثر إنسانية تجاهنا من أي مكان أخر؛ إذ لم يعد صبرنا يحتمل مزيدًا من الأماكن التي نعاني فيها الإهانة" (Adorno: 193)، إلا أن الأمر لم يخل من محاولة ابتزاز لثلاثة من مواطني المدينة زعموا أنهم موظفون حكوميون؛ فتحت عنوان "كيف نُعامل في القاهرة" يقول أدورنو: "فور وصولنا إلى القاهرة اتخذنا طريقنا إلى دار ترجمان السلطان. وبينما نحن في منتصف الطريق جاءنا ثلاثة من مواطني المدينة، يركبون الحمير. رافقونا إلى دار الترجمان، وأكدوا لنا أنهم تلقوا أمرًا من السلطان بمرافقة جميع الفرنجة واللاتين الذين دخلوا المدينة لتجنيبهم الأذى. لكنهم كانوا يكذبون، الأوغاد، كانوا يحاولون فقط ابتزاز الأموال منا". (Adorno: 208-209). ويسرد لنا أدورنو وصفًا تفصيليًا ومهما للإجراءات والقواعد الحكومية التي كان على الحاج المار بالقاهرة اتباعها. وكان أول هذه الإجراءات مقابلة "كبير تراجمة السلطان"، ورغم أن أدورنو يصف كيف أنه استقبلهم شخصيًا، بلطف وروح الدعابة، إلا أنه برر هذا الاستقبال بأن الأخير "كان يبتهج بوصول جميع أولئك الذين اعتقد أنه لن يجزهم فحسب، بل سيلتهمهم بالكامل" (Adorno: 209). ويسرد أدورنو بعدئذ زيارة مرؤوسي كبير التراجمة له، وهم ثلاثة يتمتعون بالسلطة القضائية والإشراف على شؤون الأجانب، وكيف أنه اكتشف أن أحدهم يعرف عائلته جيدًا، وأن أفرادها أسدوا له العديد من الخدمات أثناء تواجده في خيوس وجنوة (Adorno: 209). ورغم أن الأخير شمله بالرعاية وأوصى أحد زميليه بمعاملته ورفاقه "كأصدقاء وليس كفرنجة" (Adorno: 209)، إلا أن الأمر لم يخل أيضًا من ابتزاز؛ فتبعًا لكلمات أدورنو: "لقد شملنا، في الواقع، بحسن معاملته وحسن استقباله. كان لديه زوجة جميلة وشابة، أمضت وقتًا ممتعًا في صحبتنا، تراقب سلوكنا وعاداتنا. لقد قضينا الأيام الثمانية في ظروف طيبة، ولكن على نفقتنا الخاصة، والتي كانت باهظة، لأن مضيفنا لم يترك مناسبة إلا وخدعنا أو احتال علينا. هؤلاء الرجال يعطون الكلمات، لكنني لا أثق بهم" (Adorno: 209). وأخيرًا،

يروي أدورنو كيف أنه كان على الترجمان أخذهم إلى موظف كبير لقبه "ناظر الخاص" Naldarchas، ويقول في ذلك: "إذ كان من المعتاد إحضار الأجانب له، خصوصًا الفرنجة. هذا الموظف هو أشبه بمستشار أو سكرتير للسلطان، مهمته وضع تقارير عن كل شيء، خصوصًا السلع والأشخاص الذين يدخلون القاهرة. سألنا من أين أتينا وإلى أين ذاهبون، وما نعرفه عن ازدهار الترك العظام (العثمانيين)، الذين كان المماليك أنفسهم يخشون قوتهم مثلنا؟ وأخيرًا صرفنا بعد رؤية رسالة أمير الإسكندرية التي تشهد بأننا دفعنا الضريبة هناك" (Adorno: 210-211).

ورغم أن أيًا من الرحالة المعاصرين لأدورنو لا يشير إلى مسألة لقاء ناظر الخاص هذه، إلا أنهم يقدمون إشارات مماثلة لاختصاص التراجمة بالتعامل مع الحجاج الأوروبيين المارين بمصر. ويسجل فون هارف القادم عبر النيل من رشيد أحداثًا مشابهة لتلك التي أوردها أدورنو، وإن اختلفت في تفاصيلها؛ ففي الوقت الذي تغافل أدورنو عن ذكر الإجراءات في ميناء القاهرة عند بلوغه من رشيد، يروي فون هارف أنه: "بمجرد أن رسونا في القاهرة كان علينا أن نرسل إلى كبير التراجمة للحصول على إذن قبل أن نتمكن من النزول، وهو الإذن الذي سرعان ما حصلنا عليه بمساعدة الترجمان خاصتي، الذي كان معروفًا هناك. وغادرنا السفينة ونزلنا على البر. تم فحص جميع أكياسنا في دار جمركي يقع على الرصيف؛ إذ كان علينا دفع ١٠% عن أغراضنا. كما كان على كل شخص دفع دوقتين للحصول على إذن المرور، لكن بالنسبة لحاج كان عليه دفع خمس دوقات. وقد عبرت كتاجر، لكن لو علموا أمري لكنت بالتأكيد فقدت حياتي وأغراضي" (von Harff: 101).

وعلى عكس أدورنو الذي نزل عند أحد مرؤوسي كبير التراجمة، تم اقتياد فون هارف ورفقته من ميناء القاهرة إلى منزل كبير التراجمة، حيث أقام كل اثنين في غرفة وصفها بـ"حظيرة الخنازير" الخالية تمامًا إلا من الأرض العارية. ورغم أن الأمر بدا بالغ السوء لفون هارف، فضلًا عن محاولة صائغ ألماني إقناعه ورفقته بالذهاب إلى منزله، إلا أنهم اعتذروا خوفًا من كبير التراجمة (Adorno: 102). تقترح فايزة صالح سجيني على نحو معقول أن خوف فون هارف من إثارة غضب كبير التراجمة بانتقاله إلى منزل الصائغ الألماني يوحي بأن: " التراجمة كانوا يتلقون أجرًا لقاء استضافتهم للتجار الأجانب" (سجيني: ٢١١). ومثل أدورنو، كان التوفيق حليف فون هارف بمصادفته اثنين من التراجمة الحكوميين ذوي أصل ألماني (von Harff: 102)، حيث نشأت بينهم صداقة جعلتهما لا يغادرانه قط؛ فرافقاه في جولاته داخل المدينة، واستضافاه في منزليهما (von Harff: 102)، وأتاحا له التجول راكبًا (von Harff: 111)، بل وساعداه في مقابلة السلطان والحصول منه على تصريح مرور في جميع المناطق الواقعة تحت سيادته (von Harff: 103). ويقترح إسكندر أن المعلومات التي ذكرها عن القاهرة "من المؤكد أنه تحصل عليها من المملوكين الألمانيين". وقد يكون هذا محتملًا لكنه ليس مؤكدًا؛ ففان غيستيل يقدم وصفًا مماثلًا دون مصاحبة مماليك له. (إسكندر: ٥٦).

ويقدم بريدينباخ (١٤٨٣م) رواية مماثلة لفون هارف؛ فيذكر أنه بمجرد دخوله هو وصحبته القاهرة أرسلوا إلى كبير التراجمة لإعلامه بقدومهم، ويبرر ذلك بقوله: "حتى يسمح لنا بالإقامة في المدينة، لأنه بدون حمايته لا يستطيع الأجانب دخول هذا المكان بأمن وسلام" (Breyedenbach: 39)، ويستطرد بقوله: "وبمجرد أن أبلغه الرسول حتى حضر إلينا وبرفقته حراسة كبيرة" (Breyedenbach: 40). كذلك يذكر أنهم أقاموا في منزل الترجمان الذي رافقهم من المطرية إلى القاهرة (Breyedenbach: 50)، كما يشير إلى مملوكين –أغلب الظن أنهما من التراجمة- وفرا لهم المُكارية والحمير لمرافقتهم في جولة داخل المدينة(Breyedenbach: 50). وبالمثل يزودنا بومجارتن (١٥٠٧م) بمعلومات مهمة بشأن كبير التراجمة ومرؤوسيه؛ إذ يتحدث عن مقابلته ورفقته لكبير مترجمي السلطان المدعو تغري بردي في قصره، ويصف كيف استقبلهم بترحاب بالغ، وأعد لهم وليمة فخمة، ووفر لهم سبل الراحة (Baumgarten: 443)، كما يشير إلى نزولهم في منزل أحد التراجمة، ويصف مرافقته لهم أثناء جولاتهم داخل المدينة (Baumgarten: 442, 443). أما فان غيستيل (١٤٨٢-١٤٨٣م)، فيقدم تفصيلات مشابهة –إلى حد ما-ومهمة عن الشخوص الذين تعامل معهم فور وصوله إلى القاهرة من غزة؛ فيذكر أنه ورفقته نزلوا في منزل أحد تجار وطنهم –الفلاندرز- المقيمين في القاهرة تحت رعاية السلطان وزوجته (Van Ghistele: 15) ويصف كيف أن كبير مترجمي السلطان بمجرد أن علم بخبر وصولهم ونزولهم في بيت هذا التاجر أمر بمثولهم أمامه، وسألهم عن هويتهم ومن أين أتوا وإلى أين وجهتهم (Van Ghistele: 16). ومثلما ساعد المترجمان الألمانيان فون هارف على مقابلة السلطان والحصول منه على تصريح مرور خاص، نجح فان غيستيل في الأمر ذاته بمساعدة كبير التراجمة، بالطبع بعد أن قدموا له هدية نفيسة (Van Ghistele: 21).

وبأي حال تعكس روايات أولئك الرحالة غياب شكاوى جدية من سوء المعاملة من قبل موظفي الحكومة في القاهرة، عكس مدينة الإسكندرية، ويبدو أن هذا يبرره جزئيًا وجود السلطة المركزية في القاهرة التي حالت نوعًا ما دون ظهور حالات صارخة من الفساد والرشوة. كذلك يبدو أن ذلك راجع أيضًا إلى اختلاف نوعية الموظفين الذين يتعامل معهم الحجاج في كل من الإسكندرية والقاهرة؛ ففي الأولى يتعاملون مع موظفي الجمارك والمنافذ الذين من مهامهم تفتيش أغراض وجيوب الحجاج، الأمر الذي يوفر فرصة سانحة لابتزازهم، خصوصًا إذا كان أولئك الحجاج مخالفين بإخفاء هويتهم أو أموالهم. أما في القاهرة فكان الوضع مختلفًا نوعًا ما؛ إذ يتعامل الحجاج هنا مباشرة مع موظفين من الحكومة المركزية، بعضهم يخضع لسلطة السلطان شخصيًا، ككبير التراجمة وناظر الخاص، ومثل هؤلاء من المستبعد ممارستهم أي ابتزاز تجاه الحجاج. ومع ذلك؛ كان الأمر يستدعي أحيانًا ما يشبه الهدايا التي قدمها بعض الحجاج طواعية للتراجمة نظير مساعدتهم في تحقيق رغبات استثنائية، فمثلًا يشير فان غيستيل إلى أنهم قدموا لكبير التراجمة هدية نفيسة كي يتوسط لهم في مقابلة السلطان (Van Ghistele: 21, 42). كذلك قدم

بريدينباخ ورفاقه "مبلغًا كبيرًا من المال" للترجمان كي يساعدهم في دخول حديقة البلسان بالمطرية (Breyedenbach: 41).

خامسًا. تجربة التعامل مع أرباب المهن الحرة:

١. التعامل مع التراجمة الخصوصيين:

بالرغم من أن السلطات المملوكية وفرت للحجاج الأوروبيين خدمات التراجمة الرسميين داخل القاهرة والإسكندرية لقاء أجر أو رسم –كما أوضح أدورنو (Adorno: 209)-، فإن هذه الخدمة لم تكن تغطي كافة أرجاء أرض مصر. ولأن اختلاف اللغة هي إحدى الهواجس الأساسية التي تعتري أي مسافر عبر أرض غريبة، فقد لجأ بعض الحجاج المرتحلين عبر مصر إلى استئجار تراجمة خصوصيين يرافقونهم عبر الطريق من الإسكندرية إلى القاهرة، ثم بعد خروجهم من القاهرة إلى جبل سيناء.

ويظهر هذا الهاجس واضحًا في حالة أدورنو؛ إذ كان حريصًا على استئجار ترجمان قبل مغادرته الإسكندرية، ولأن الأمر تم بشكل عشوائي دون معرفة سابقة أو توصية من أحد التجار الأوروبيين في الإسكندرية، فإن الشك في هذا الترجمان لم يفارق أدورنو طوال رحلته النيلية من رشيد إلى القاهرة؛ فصمت الترجمان عن تشاجر أصحاب المراكب النيلية عليهم ولجوء بعضهم إلى سحبهم بالقوة جعل أدورنو يظن أنه "تم اختطافنا لبيعنا"، وعندما أدرك أن الأمر لا يعدو تنافسًا على الرزق، عبر عن دهشته من موقف الترجمان قائلًا: "لقد تفاجأنا بموقف الترجمان خاصتنا، وتساءلنا في أنفسنا: ألم يكن يعي ما يحدث؟ وإن وعى؛ فما سبب صمته وعدم إخبارنا به بالإيطالية؟ ألم يستطع إخبارنا أم أنه لم يرد ذلك؟" (Adorno: 178). ورغم أن أدورنو لم يسجل فعلًا أقدم عليه هذا الترجمان من شأنه أن يثير الشكوك، إلا أن صمته وتغافله عن ترجمة ما يحدث حولهم عُد تقصيرًا وفشلًا دفعهم إلى الاستغناء عنه بمجرد بلوغهم القاهرة.

ويبدو أن التجربة التي مر بها أدورنو ورفاقه مع هذا الترجمان دفعتهم قبل خروجهم من القاهرة في رحلة جبل سيناء إلى التروي والتدقيق في الاختيار؛ فالسفر عبر الصحراء لا يمكن مقابلته بالانتقال عبر النيل. ولذا فإن أدورنو، تحت عنوان "التدابير الواجب اتخاذها لاجتياز الصحراء"، وجد الفرصة مواتية لتقديم نصائحه لقرائه بشأن أهمية هذا التروي وذاك التدقيق؛ إذ يقول: "أولاً وقبل كل شيء، يجب أن نوفر لأنفسنا دليلًا أو مترجمًا مخلصًا ومستنيرًا يرافق الحجاج، ويهتم بكل شؤونهم بروية، ويدافع عنهم ويرشدهم، كما يقود الراعي الصالح خرافه. إن الحصول على مثل هذا الشخص أمر ضروري، ومن المرغوب فيه أن يكون أمينًا، وإن كان الترجمان الأمين طائرا نادرا في هذه البلدان.

هناك عدد قليل من الأدلاء والمترجمين، وأقل من ذلك بكثير إذا أردته مخلصًا! وإذا وجدت واحدًا جيدًا وصادقًا، فإنني أنصحك بعدم تركه يفلت، مهما كان الثمن الذي سيطلبه أو المكان الذي ستقابله فيه لأنه سيوفر عليك العديد من المخاطر" (Adorno: 201). ويبدو أن أدورنو ورفاقه دققوا جيدًا في اختيارهم هذه المرة، وأخضعوا ترجمانه الجديد للاختبار؛ ففي البداية أوصاهم أحد التجار باستخدام ترجمان عربي من غرناطة يجيد الإسبانية، يُسمى عبد الله. وبعد أن اكتشفوا تدليسه في أثمان ما اشترى لهم من احتياجات ومؤن، استغنوا عنه وصرفوه واستبدلوه بترجمان أخر أكثر ثقة رغم أن هذا كلفهم مزيدًا من المال. ويعلق أدورنو على هذا بقوله: "لقد كان تغييرًا أدى إلى ولادة أفضل" (Adorno: 212-213).

أما فون هارف؛ فيبدو أن تدقيقه منذ البداية في اختيار الترجمان جنبه الشكوك التي ساورت أدورنو ورفاقه ووفرت عليه التفكير في تغيير ترجمانه الخاص وما يترتب على هذا من مال مهدر. ولعل هذا يفسر سبب حرص فون هارف على استئجار ترجمان موثوق به قبل انطلاق رحلته من البندقية، كما يبرر الأجرة الباهظة التي تم الاتفاق عليها، وهي المبلغ الأعلى على الإطلاق الذي اضطر إلى دفعه خلال رحلته؛ فوفقًا لقوله: "ساعدني التجار الألمان في العثور على ترجمان يعرف عددًا من اللغات، اسمه السيد فينسينت Vyncent. ولم أكن أعلم أنه مسيحي أسلم. كان يجيد العديد من اللغات كاللاتينية والإيطالية والإسبانية واليونانية والتركية والعربية. وكنت سعيدًا للغاية بهذا. واتفقت معه على أن يأخذني من البندقية إلى القاهرة، ثم إلى سانت كاترين وعبر سائر أراضي العرب إلى القدس، وذلك لقاء أربع دوقات شهريًا، بالإضافة إلى طعامه وشرابه ومائة دوقة كإكرامية" (von Harff: 69).

ويُفهم من يوميات كل من أدورنو وفون هارف أن مهمة الترجمان لم تكن قاصرة على عملية الترجمة المباشرة بين الحجاج الأوروبيين والمتعاملين معهم، بل امتدت إلى كونهم القناة الأساسية في عمليات الشراء واستئجار وسائل النقل المختلفة؛ فكما أشار أدورنو إلى اضطلاع الترجمان عبد الله بشراء احتياجاتهم ومؤنهم، وإلى نجاح الترجمان لوران في تجنيبهم نفقات وغرامات متعددة، يسجل أيضًا تولي الترجمان مهمة الاتفاق مع سائقي الجِمال وصياغة العقد معهم (Adorno: 215). ويسجل فون هارف اعتماده على ترجمانه في شراء متطلبات الرحلة (von Harff: 69) وتبديل العملة في البندقية (von Harff: 71)، وفي التعامل مع موظفي المنفذ الجمركي في ميناء الإسكندرية لاستخراج تصريح مرور له (von Harff: 93). ورغم أن فون هارف لم يذكر دور الترجمان في التفاوض مع المُكَارِية وأصحاب القوارب النيلية خلال الرحلة من الإسكندرية إلى القاهرة، وأن الترجمان لم يعد له ذكر خلال إقامته في القاهرة بسبب وجود تراجمة حكوميين من أصل ألماني، إلا أن دوره عاود الظهور ثانية أثناء الاستعدادات لمغادرة القاهرة إلى جبل سيناء. وقد برز دور الترجمان خلال هذه المرحلة في البحث عن سائقي الجِمال وصياغة عقد اتفاق النقل معهم (von Harff: 132,

134)، وتوسطه في تقديم فون هارف لمبعوث سلطان الهند الذي تصادف وجوده أثناء رحلة عودته بعد اكتمال مهمته الدبلوماسية (von Harff: 134).

ويبدو أن فون هارف، الشاب ذا الخامسة والعشرين والشغوف بالمعرفة، هدف إلى الإفادة من ترجمانه لأبعد من هذا، خصوصًا أن الأخير كان متفردًا بالإلمام بعدد غير قليل من اللغات. وهنا يمكن تفسير إشارة فون هارف: "وكنت سعيدًا للغاية بهذا"، وكذلك تفسير سر تميزه عن غيره من الرحالة المعاصرين بحرصه على تزويد يومياته بما يشبه المعاجم الموجزة لأهم الكلمات والعبارات الأساسية التي يحتاجها الحاج في رحلته، فضلًا عن شكل الحروف الأبجدية لمختلف اللغات التي تعلمها فيما يبدو من الترجمان، على الأقل فيما يخص اللغة العربية التي استأجره من أجلها خصيصًا (von Harff: 89-91).

شكل (٢): جدول يوضح المفردات العربية ونطقها كما ذكرها فون هارف

(von Harff, 129-130)

Kolps	خبز	sammack	سمك	gammar	حمار
moya	مياه	schall	خل	Schymel	جمل
inhibit	نبيذ	Bayet	بيض	medina	مدينة
alleham	اللحم	gayr	خير	bledine	بلدة
syet	زيت	oisch	وحش (سيء)	Elkotz	القدس
mele	ملح	farras	فرس	merkep	مركب
ganeme	غنم	dyck	ديك	kelp	كلب
olla	الله	getzera	جزيرة	beyt	بيت
schamma	شمعة	sabin	صاحب (صديق)	rasel	راجل (رجل)
acktzello	اغتسلُ	camijss	قميص	kalo	كلوا (أكلوا)
Schou	شوية (قليل)	ena	أنا	acha	أغا (سيد)
tale	تعالى	thayer	طائر	fluyss	فلوس (نقود)
mor	مُر	helm	حلو	nem	نم

شكل (٣): صورة الحروف العربية كما سجلها فون هارف

(von Harff: 130)

ويقدم الرحالة الأخرون المعاصرون لنصف القرن الأخير من العصر المملوكي معلومات مماثلة عن التراجمة الذين استأجروهم، وإن تفاوتت هذه المعلومات في كمها؛ فرغم أن بومجارتن (١٥٠٧م) لم يقدم أية معلومات عن رحلته من الإسكندرية إلى القاهرة سوى أن هناك "ترجمانًا" صاحبهم فيها، إلا أنه فيما تعلق برحلة جبل سيناء يخبرنا أنه ورفاقه استأجروا "ترجمانًا يونانيًا معروفًا يجيد الإيطالية والعربية ... والذي قام بالتزود بالحاجيات الضرورية لرحلتنا، واستأجر لنا الجِمال وطلب أن نكون على أهبة الاستعداد في الموعد المحدد" (Baumgarten: 446). وفي الوقت الذي لا

يقدم فان غيستيل (١٤٨٢-١٤٨٣م) معلومات مفيدة لهذا السياق، لا يشير بريدينباخ (١٤٨٣م) سوى إلى الترجمان الذي صاحبهم إلى رحلتهم من القاهرة ورشيد، ويصف كيف أنه تولى عنهم مسألة التفاوض مع أرباب المراكب النيلية ودفع أجرهم (Breyedenbach, 62, 64). وأخيرًا يصف فرانسيسكو سوريانو (١٤٩٤م) كيف أن وجود عدد كاف من التراجمة مع قافلة الحجاج عبر الرحلة العكسية من جبل سيناء إلى القاهرة كان أمرًا ضروريًا لسلامتها؛ إذ يقول: "وخلال هذه الرحلة كنا غالبًا في خطر كبير، وكنا في مرات عديدة على وشك القتل بيد البدو، ذلك لأننا كنا عائدين إلى القاهرة بصحبة ترجمان واحد فقط" (Suriano, 188).

٢. التعامل مع أرباب وسائل النقل النهري والبري من الإسكندرية إلى القاهرة:

مثلما كان الرحالة الأوروبيون بحاجة إلى التراجمة خارج القاهرة والإسكندرية، كانوا أيضًا بحاجة إلى من يوفر لهم وسيلة الانتقال، سواء من مُكَارِية الحمير والبغال لنقلهم من الإسكندرية إلى رشيد، أو أصحاب القوارب النهرية لنقلهم عبر النيل إلى القاهرة، أو سائقي الجِمال عند مغادرتهم القاهرة إلى جبل سيناء.

أ. مُكَارِية الحمير والبغال:

ترد الإشارة إلى المُكَارِية في يوميات الرحالة الأوروبيين بمسماهم العربي؛ فهم عند أدورنو *mucari* ويشملون مُكَارِية الحمير والبغال وسائقي الجِمال. أما فون هارف فقد ذكر لفظة "المُكَارِية" بصيغتين: الأولى أوردها قبل مغادرته الإسكندرية إلى رشيد، وهي *makari*، وعرفهم بأنهم "الذين يؤجرون الحمير"، والثانية *mokarij* وقصد بها سائقي الجِمال المرتحلين به ورفاقه من القاهرة إلى دير سانت كاترين، وأقرانهم الذين حملوهم من هناك إلى طور سيناء. ووردوا عند بريدينباخ باسم *moucres*، وعند جان ثينو باسم *moucheron*. (Adorno: 215; von Harff: 96, 135, 148; Breyedenbach: 50) تشير يوميات الرحالة الأوروبيين خلال نصف القرن الأخير من العصر المملوكي إلى أن عملية الانتقال من رشيد إلى الإسكندرية والعكس كانت تتم دون أية مصاعب جدية؛ ففي الوقت الذي لم يكن أدورنو مضطرًا إلى اللجوء إلى المُكَارِية لأسباب أمنية (Adorno: 175)، ويروي بومجارتن (١٥٠٧م) رواية مشابهة نوعًا ما؛ إذ يشير إلى أنه ورفاقه ركبوا البغال من الإسكندرية إلى رشيد وبصحبتهم تجار بنادقة ومملوك. ثم يذكر بعد ذلك مباشرة أنهم رأوا أعراب يتشاجرون، وما أن رأوهم حتى أجبروهم بالقوة على دفع بعض المال (Baumgarten: 96)، لا يذكر فون هارف سوى أنه ورفاقه "تفاوضنا مع مُكَارِية *makari*، وهم الذين يؤجرون الحمير، لحملنا من الإسكندرية إلى رشيد" (von Harff: 96). ويسجل بريدينباخ رواية غريبة تتعلق بسبب عدم السماح للأوروبيين بمواصلة رحلتهم إلى فرع رشيد بقوله: "كان الحجاج يركبون الحمير أو الجِمال في هذه المنطقة للوصول إلى الإسكندرية. وقيل لنا أنه يتعين

عليهم ذلك حتى لا يكتشفوا مصبات النيل الرئيسية خشية أن يأتي هجوم الأعداء عبر هذه المصبات" (Breyedenbach: 63). ولعل الصعوبة الوحيدة التي نجدها في يوميات الرحالة الأوروبيين بشأن الرحلة من رشيد إلى الإسكندرية هي ما سجلها بريدينباخ عند بلوغه رشيد: "وعندما أنزلنا أمتعتنا من القارب، قيل لنا: إن الحمير والجمال غير متوفرة اليوم لاستخدامها في عمل آخر عاجل، وأنها لن تتوفر إلا في الغد" (Breyedenbach: 63).

أما بالنسبة لمدينتي القاهرة (رحيل: ٧٥-١٠١) والإسكندرية؛ فهناك إشارات في كتابات الرحالة تشير إلى حظر ركوب الأوروبيين الحمير والبغال والخيول داخلهما؛ إذ يذكر أدورنو فيما يتعلق بداخل الإسكندرية: "المماليك فقط هم من يمتطون الخيول كعلامة على التفوق السلطاني، أما المسلمون فيسمح لهم بالبغال والحمير فقط، أما بالنسبة للمسيحيين [بما في ذلك الفرنجة] واليهود فلا يسمح لهم بالخيول ولا البغال ولا الحمير، ومن ثم يُحرمون من التجول عبر المدينة" (Adorno: 171). ويمكن مقاربة ذلك برفض حراس بوابة الإسكندرية دخول بريدينباخ ورفاقه الإسكندرية وهم على الحمير والجِمال، وضربه بالعصي عندما حاول الأخيرون مساومتهم (Breyedenbach: 66). ويلمح أدورنو إلى تشابه الوضع داخل القاهرة، لكن دون تصريح، إذ يقول: "تكتظ جميع الشوارع بحمير وبغال مغطاة بالسجاد والمفارش الزاهية، ويمكن استئجارها مقابل المال لاستكشاف المدينة، لأنها واسعة جدًا بحيث يكون من الضروري أحيانًا لأولئك الذين ينتقلون فيها أن يكونوا راكبين. تقريبًا يركب جميع المواطنين والأعيان الحمير والبغال؛ المماليك فقط هم من يركبون الخيول" (Adorno: 193). وفي مقابل هذا التلميح من جانب أدورنو، يذكر فون هارف هذا الحظر صراحة فيما يتعلق بالقاهرة: "تكتظ الشوارع الكبيرة بالحمير والخيول والجِمال والبغال في انتظار التأجير، ... لكن المسيحيين [بما فيهم الفرنجة] واليهود لا يُسمح لهم بالركوب. وعلى الرغم من ذلك كنت أركب كثيرًا عبر المدينة مع المملوكين الألمانيين؛ إذ كنت أرتدي وأركب مثلهم" (von Harff: 111).

ومع ذلك هناك إشارات أخرى توحي ظاهريًا بأن هذا الحظر لم يكن مطلقًا أو جامدًا؛ فبريدينباخ يشير إلى أنه: "أتى إلينا مملوكان مع عدد كبير من المكارية *moucres* والحمير لأخذنا في جولة لبعض الأماكن في المدينة" (Breyedenbach: 51)، وأنه كان من بين هذه الأماكن صعود جبل لرؤية القاهرة من أعلى: "وكنا بالكاد نمتلك زمام الحمير التي نركبها، ولم نصل إلى القمة إلا بعد عناء شديد" (Breyedenbach: 55). إلا أن بريدينباخ نفسه يميز هنا بين القاهرة التي غادروها وبابل التي دخلوها، و"التي لا تبعد عن القاهرة مسافة كبيرة حتى أنها تعد مدينة واحدة" (Breyedenbach: 53). ومعنى ذلك فإن "القاهرة" التي يسري عليها الحظر، والتي يقصدها فون هارف، تمثل نطاقًا جغرافيًا معينًا لم يحدده بدقة، وإن تنقلات بريدينباخ كانت خارج هذا النطاق (رحيل: ٧٧). وهذا الأمر يؤكده أيضًا الألماني بومجارتن عام ١٥٠٧م؛ إذ يتحدث عن رحلته ورفاقه على البغال إلى المطرية، ويميزها عن القاهرة بقوله: "وبعد

أن استأجرنا البغال ومملوكين لحراستنا، ذهبنا إلى المطرية؛ وهي مدينة ليست بعيدة عن النيل، وتبعد نحو ميل واحد عن القاهرة" (Baumgarten: 446).

ب. أصحاب القوارب النيلية:

كان وصول الحجاج الأوروبيين من رشيد إلى القاهرة أو العكس يستدعي استئجار قارب عبر نهر النيل. ومن بين الرحالة الذين زاروا مصر خلال نصف القرن الأخير من العصر المملوكي كان أدورنو وبريدينباخ الوحيدين اللذين سجلا صعوبة في التعامل مع أصحاب القوارب النيلية. ونظرًا لتفرد تجربة أدورنو في رشيد وحرصه على تسجيلها بالتفصيل؛ فقد يكون من الأنسب اقتباسها كما رواها؛ إذ يقول: "لقد ربط البحارة حبال القارب في أعمدة على الضفة حتى نتمكن من إمضاء الليل في هذا المكان. وخرجنا من القارب برفقة المملوك لزيارة المدينة، وعندما عدنا وجدنا البحارة يتشاجرون ويلقون بعضهم البعض في الماء. ظللنا صامتين ولطيفين مثل الحمل الوديع. في نهاية المطاف ابتعد البحارة، وأخذنا أخرون إلى قاربهم وسحبوه بعيدًا عن الشاطئ وبدأوا التجديف. شعرنا وقتها بالخوف الشديد، وشُل تفكيرنا وانعقدت ألسنتنا، ولم نكن نرى شيئًا بسبب ظلمة الليل. ووجدنا المملوك والترجمان صامتين، وشعرنا بأنهم يتظاهرون بالحزن والغضب وعدم الرضا عما حدث. والحق أن الشكوك ساورتنا أنهم باعونا وأن حزنهم ما هو إلا نوع من التظاهر. صادفنا أخيرًا قاربًا كبيرًا، وعلى الفور أسرع بحارته بانتزاع امتعتنا وحملوها على متنه رغمًا عنا. ولذلك اعتقدنا أنه تم اختطافنا لبيعنا، لكننا وجدنا على متن هذا القارب الكبير تجارا مغاربة كانوا قد انضموا إلينا في رحلتنا من تونس إلى الإسكندرية. وبمجرد أن رأونا جاءوا إلينا وهدأوا من روعنا قائلين: "لا ترتعدوا، فهؤلاء البحارة لا يبتغون حياتكم أو ما تحملونه معكم، بل يريدون فقط حملكم إلى القاهرة طمعًا في الأجرة التي كنتم ستعطونها للبحارة الأخرين. لقد منحهم السلطان في الواقع امتياز تحميل قاربهم قبل جميع القوارب الأخرى". أحالت هذه الكلمات خوفنا إلى بهجة. ومع ذلك؛ فاجأنا موقف الترجمان خاصتنا، وتساءلنا في أنفسنا: ألم يكن يفهم ما يحدث، وإن فهم، فما مبرر صمته وعدم إخبارنا به بالإيطالية؟ ألم يستطع أم لم يرغب في ذلك؟ وفي هذا القارب وجدنا صعوبة كبيرة للعثور على مكان لوضع أمتعتنا والحفاظ على أنفسنا، لأن هناك الكثير من البضائع والناس والرجال والعائلات. لقد عانينا الكثير من الشقاء بسبب ضيق المكان. وكان علينا أن نجلس ونفسح المكان لجميع الركاب، حتى الأكثر حقارة وبؤسًا، لأنهم لا يعتبرونا بشرا، بل حيوانات ... ومع ذلك، كان هناك بعض المسلمين الذين لم تتوقف زوجاتهم النبيلات، بلطف النساء، عن مواساتنا. أعطين لنا الحلوى والشراب والسكر والعسل، وأرين مجوهراتهن، وتحدثن إلينا بأدب ولطف. وعلى الرغم من ذلك كله، تحدثنا معهم بحذر شديد خوفًا من أن يستخدم المسلمون هذه المحادثات كذريعة للبحث عن شجار معنا. كانت حمولة القارب ثقيلة للغاية لدرجة أننا اعتقدنا أنه سيغرق بنا. ولهذا اضطر المسافرون

عدة مرات إلى السير بمحاذاة الشاطئ في المناطق الضحلة. وذات صباح نزلنا وسرنا لنصف يوم، حفاة الأقدام كما يفعل أهل البلد... ولكن الحقيقة أن النزول من القارب، رغم أنه أقلقنا وأزعجنا في البداية، كان مفيدًا جدًا وسببًا في إنقاذنا. حيث حاول بعض العربان الاستيلاء على القارب، ونجونا من أيديهم المتوحشة بفضل وجودنا على الشاطئ. فماذا كنا سنفعل في القارب الصغير الذي ركبناه أولًا؟ كنا سنُختطف أو نُقتل أو نُباع كعبيد" (Adorno: 175, 177, 179). أما الرواية الثانية، والمشار إليها سلفًا، فهي لبريدينباخ، الذي يشير إلى أن أصحاب القارب الذي حمله من القاهرة إلى رشيد أنكروا عدم استلامهم أجرتهم من ترجمانهم في القاهرة؛ مما اضطره ورفاقه إلى دفعها مرتين (Breyedenbach: 64).

وتتضمن هاتان الروايتان عدة عناصر: (١)احتيال أصحاب القوارب النيلية وتنازعهم على حمل الحجاج الأوروبيين سعيًا إلى الرزق، وما سببه هذا من مخاوف وشكوك لدى أولئك الحجاج –الذين لم يفهموا ما يجري- خوفًا من الاختطاف وبيعهم كعبيد؛ (٢)أن جشع أصحاب القوارب دفعهم إلى تكديسها ومن ثم تدافع وتزاحم الركاب، الأمر الذي عده أدورنو معاملة لا آدمية لهم؛ (٣)وجود مغاربة ونساء مصريات حاولوا التهدئة من روع الحجاج والتخفيف عنهم؛ ومع ذلك ظل الشك غالبًا على أدورنو ورفاقه؛ (٤)هجمات العربان على القوارب ونهبهم لها؛ وتجدد مخاوف الحجاج من القتل أو الاختطاف وبيعهم كعبيد.

والواقع أن هذه العناصر نجدها متكررة وبصور مختلفة في العديد من المواقف التي مر بها الرحالة الأوروبيون في تعاملاتهم مع شرائح أخرى من المجتمع المصري، ومع ذلك لا يمكن اعتبار هذا يمثل قاعدة ثابتة أو عامة تنطبق على جميع الحجاج أو قاصرة عليهم فقط؛ فشجار أصحاب القوارب النيلية كان يمكن أن يحدث على نقل البضائع أيضًا، ودافعه جلب الرزق وليس كراهية الأجانب (Breyedenbach: 51, 65)، كما أن التزاحم كان أمرًا لا مفر منه مع كثرة السكان، وكان من شأنه أن يسبب تدافعا ومن ثم ضيقًا وضررًا (Adorno: 211).كذلك لم يعان جميع الرحالة من مضايقات في شوارع مصر (Breyedenbach: 454)، وإن حدثت مثل هذه المضايقات فإنها لم تمثل ظاهرة عامة. وإذا كان هناك مماليك تنمروا ضد الحجاج فإن سوء معاملتهم –كما شهد بذلك الرحالة الأوربيون أنفسهم- امتد إلى المصريين (Adorno: 199, 200; von Harff: 121-122; Baumgarten: 454)، ومع ذلك كان هناك مماليك آخرون هرعوا إليهم لتقديم يد المساعدة (van Ghistele: 29, 74; Breyedenbach: 48). وأخيرًا كان العربان ونهبهم أمرًا أقلق المصريين والسلطات الحكومية ذاتها، وسعت الأخيرة –كما يعكس الرحالة أنفسهم- إلى حماية الحجاج من خطرهم (Breyedenbach: 73; Adorno: 175; Baumgarten: 438). ورغم ذلك كله فإن وجود مثل هذه الأحداث –أيًا كان كمها أو درجة عموميتها- كان من شأنه أن يبث الخوف في نفوس أي غريب عن أهل البلد.

ج. التعامل مع سائقي الجِمال:

صارت القاهرة منذ عام ١٤٨٠م المحطة الأساسية لذهاب وعودة الحجاج الأوروبيين المتجهين إلى جبل سيناء؛ فتبعًا لسوريانو (١٤٩٤م) هجر الحجاج منذ ذلك العام الطريق المباشر الواصل بين جبل سيناء وغزة، رغم أنه أقصر بمسافة أربعة أيام، "لكنه غير آمن وخطر؛ ومنذ تلك السنة إلى الآن هجره الحجاج، وصاروا جميعًا يتخذون الطريق من القاهرة لكونه أكثر تأمينًا" (Suriano: 186). وعلى ذلك بات لزامًا على الحجاج القادمين عبر طريقي غزة والإسكندرية بلوغ القاهرة لبدء هذه الرحلة (Suriano: 186-187). ونظرًا لأن الحجاج العازمين على القيام بهذه الرحلة كانوا يعرفون سلفًا أنهم سيعبرون صحراء شاسعة وقاحلة، يتوقعون فيها المشقة ومواجهة الصعاب، فقد كان عليهم التجهيز لها تجهيزًا خاصًا (Suriano: 186)، والتدقيق في اختيار مرافقيهم من التراجمة وسائقي الجمال. وقد عبر أدورنو عن هذا بقوله: "إن هذه الصحارى جافة، قاحلة، رملية، نادرة الماء، غير مزروعة، في كل أرجائها تقريباً. فقط البدو يقيمون هناك في بعض المناطق النائية، وبالقرب من الينابيع. لذا من الضروري أن يتخذ أولئك الذين سيعبرون هذه المناطق أكبر قدر ممكن من احتياطات الأمان للبقاء على قيد الحياة، ليس فقط ضد الجوع، بل أيضًا ضد قطاع الطرق الذين يسرقون المسافرين عبر الصحاري" (Adorno: 211). ويقدم أدورنو بعد ذلك قائمة طويلة من النصائح لقرائه، صنفها في ثلاثة أقسام رئيسية: (١)التدقيق في اختيار التراجمة؛ (٢)الأطعمة والأشربة (Adorno: 213; von Harff: 135) والأدوية (Adorno: 213) التي ينبغي حملها؛ (٣)نوعية الدواب وسائقيها والحراس المرافقين للقافلة.

وفيما يتعلق بالعنصر الثالث ينفرد كل من أدورنو وفون هارف عن غيرهم من الرحالة المعاصرين لنصف القرن الأخير من عصر الدولة المملوكية بذكر تفاصيل مهمة عن طبيعة العلاقة بين الحجاج الأوروبيين وسائقي الجِمال (Van Ghistele: 6-10) ؛ إذ ورد في نصائح أدورنو: "يجب أن نكون حذرين في اختيار المُكَارِية *mucari* الجِمال، لأن حياة المسافرين في أيديهم. لذلك يجب أن تسعى جاهدًا لإيجاد قنوات معروفة وموثوقة لتأجيرهم؛ فإذا لم يكونوا معروفين لك وتخشى من احتيالهم، يكفي أن يكون لديك عقد مكتوب يتم إعداده من قبل كاتب العدل العام *public notarius* الذين يسمونه الشاهد *temoin*، الذي يحرر عقداً وإيصالًا في حالة الدفع. في الواقع يخشى هؤلاء العقود المكتوبة. لقد استأجرنا لأنفسنا وللترجمان خاصتنا ستة جمال بثلاثة مُكَارِية عرب، وقمنا بتحرير عقد. كما أخذنا عربيًا آخر لضمان سلامتنا" (Adorno: 215).

ويؤكد فون هارف على آلية الاتفاق هذه مع سائقي الجِمال؛ فيروي أنه رافق الترجمان وثلاثة حجاج وتاجرين من جنوة للبحث عن "سائقي الجِمال، المعروفين هنا بالمُكَارية *mokarij*" (von Harff: 134)، بحيث ذهب كل منهم لمساومة

أحدهم. ووفقًا لفون هارف: "وحررنا عقدًا بلغتهم بمساعدة اثنين من كتاب العدل *magistrates* العرب" (von Harff: 134). وبينما لم يسجل أدورنو تفصيلات العقد الذي حرره مع سائق الجمل الذي حمله، حفظ لنا فون هارف صيغته كاملة؛ وهي كالتالي: ""أقر أنا/ .... أن أحمل السيد/ ....، هذا الفرنجي (هكذا يدعون الذين يأتون من بلداننا) من هنا من القاهرة إلى الدير الكائن أسفل جبل سيناء على جمل جيد، على أن يجلس على أحد جانبيه في صندوق خشبي مغطى بجلد سميك، وعلى الجانب الآخر مؤنه وطعام الجِمال. وسأحمل له ضرعين، من جلود الماعز، ملآنان بالماء له وللجمل. بالإضافة إلى ذلك، سأساعده على الصعود والنزول من فوق الجمال، وسأبقى معه ليل نهار وأهتم برعايته. وسيعطيني هذا الفرنجي/ .... دوقتين، واحدة في القاهرة والأخرى عندما نصل إلى الدير أسفل جبل سيناء" (von Harff: 134).

وفي الوقت الذي اشترى فون هارف مظلة خشبية تحميه من حرارة الشمس (انظر شكل٤)، لم يشر أدورنو إلى أنه أقدم على مثل هذا الاحتراز. ومع ذلك فقد اتفق الاثنان على تفضيل –كما يظهر في عقد فون هارف- جمل حامل لصندوقين خشبيين على جانبيه؛ إذ يوصي أدورنو ضمن نصائحه: "إن مؤجري الجمال يفضلون توفير جمل واحد لكل شخص، بدلاً من تحميل شخصين في صندوقين على جانبي جمل واحد. لذلك إذا نصحوك بالسفر بدون هذين الصندوقين، فلا تقبل بأي شكل من الأشكال، لأنه في حالة مرض أحد المسافرين، فإن الصندوق سيكون ضروريًا ومفيدًا جدًا لاسترخاء المريض"؛ إذ يصف أدورنو مشقة ركوب الجمل على الحجاج الأوروبيين بقوله: "لا أنصح بأخذ الأحصنة أو الحمير، بل الجِمال التي تتغذى على القليل ويمكنها السير ثلاثة أو أربعة أيام دون شراب. هي أيضا حيوانات قوية تحمل حمولات ثقيلة. ستركبهم في أزواج، أعني شخصين على كل جمل، في صندوقين معلقين على جانبي الجمل. في البداية، قد يبدو الأمر غريبًا وقاسيًا بالنسبة لك، لأن الجمال، مثل السفن في العواصف، تقذفك، ولكنك لن تهتم بمجرد أن تعتاد الأمر." (Adorno: 213-215). وقد كان فون هارف حريصًا على رسم لوحة علق عليها بقوله: "وبالطريقة الموضحة أدناه جلست في صندوق على أحد جانبي الجمل، وعلى الجانب الأخر، بسبب الحرارة، قرب جلود الماعز مليئة بالماء والدقيق والخبز وغيرها من الأطعمة لي وللجمل" (von Harff: 135).

شكل (٤): فون هارف على الجمل

وبأي حال؛ يبدو من روايتي أدورنو وفون هارف أن هذا العقد وحده لم يكن كافيًا أو مقنعًا لسائقي الجمال، وأنه على العكس مما توقع أدورنو لم يثنيهم عن طلب المزيد؛ فوفقا له: "أنهكنا الماكرون بالثرثرة والطلبات، ولم ينقطع طلبهم للطعام رغم أنه بالكاد يكفينا، وهددونا مرارًا بالتوقف عن المسيرة أو التخلي عنا" (Adorno: 215)؛ و "بدأوا في إزعاجنا وإساءة معاملتنا؛ فقد تجادلوا وتشاجروا فيما بينهم لأن أحدهم تلقى منا أجرًا أكثر من الأخر. وقالوا لنا: إن علينا إعادة الاتفاق معهم على الأجرة وإلا لن يواصلوا المسيرة" (Adorno: 217). وكان أسلوب فون هارف مختلفًا في تعامله مع سائقي الجِمال، كما هو دوما ربما بسبب ثقافته ومعرفته المسبقة؛ إذ ينصح قراءه قائلًا: "عليك أن تقدم له هدايا سرية، والتي تُعرف في لغتهم بالمجاملات [الإكراميات]، ومشاركة مؤنك معه، وإلا عانيت من الإهانات والمصاعب. لكنك إن أخرجت عشرة أو اثنتا عشرة دوقة، وأعطيتهم له كمجاملة، سيقف إلى جانبك بكل ولاء، كما حدث لي في الأغلب خلال الرحلة؛ ففي كثير من الأحيان، عندما كان يداهمنا بدو البرية بصراخهم العالي، كما لو أنهم سيضربوننا حتى الموت، مطالبين بالإكراميّات، التي هي تحية أو هدايا، عندئذ يقف المُكَارِي *mokarij* خاصتي مستعدًا بإخلاص للرد بضربات أو بخوض العراك، لأنه هو نفسه بدوي (von Harff: 134-135).

الخاتمة:

من خلال العرض السابق يمكن الخروج بالنتائج الآتية:

- من المهم الوضع في الاعتبار أن ما دونه الرحالة الأوروبيون سالفو الذكر يعبرون به عن تجارب شخصية، قد تختلف في تفاصيلها من واحد إلى آخر، تبعا لظروف وتوقيت كل منها؛ فإذا كان بعضهم قد صادف موظفًا مرتشيًا أو مبتزًا، فهذا لا يعني أن كل أقرانه صادفوا هذا الصنف من الموظفين، وإذا كان بعضهم قد تعرض لمضايقات من قبل المارة في الشوارع أو من المُكارية وأصحاب القوارب النيلية وسائقي الجِمال، فلا يعني هذا بالضرورة أن ذلك كانت تجربة عامة لكل الحجاج الأوروبيين؛ فيوميات فون هارف وفان غيستيل وجان ثينو لا تلمح إلى أي من هذه المضايقات.
- أن ما يذكره الرحالة في روايته يخضع لعوامل نفسية ضاغطة يتباين تأثيرها تبعًا للطبيعة الشخصية والقدرة على التحمل؛ ومن هنا قد يجد أحدهم في تفصيل ما عاناه نوعًا من التنفيس عن غضبه وسخطه، مثل أدورنو وبريدينباخ، بينما قد لا يجد آخر داعيًا لأن يضمن روايته ما يراه تجربة شخصية خضعت لظروف معينة ليست بالضرورة متكررة مع الجميع، ولعله أيضًا وجدها ليست بقدر أهمية تسجيل مشاهداته عن الأماكن التي زارها؛ فغالبًا ما يختار الرحالة ما يريد نقله لقرائه وليس العكس، ولنقرأ ما كتبه بومجارتن في هذا السياق: "إن ما أدونه هو ما أعتقد أنه الأكثر أهمية، وربما أكون، بسبب الإهمال أو النسيان، تغافلت عن أمور عديدة قد تهم القارئ" (Baumgarten: 445-446). وفي هذا الصدد أيضًا وجد فون هارف أن لا حاجة لأن ينقل للقارئ تجربته المأساوية في بيت كبير التراجمة؛ فآثر الإيجاز قائلًا: "ولأن الأمر سيأخذ وقتًا طويلاً لتسجيل ما فعلوه بي في تلك الأيام الثلاثة، ولأنه لا يليق بأوروبيين؛ فسأتجاوزه" (von Harff: 106).
- أن هوية الحاج عند عبوره أرض مصر أثرت في تجربته؛ فلجوء بعض الحجاج الأوروبيين إلى التخفي في هيئة التجار ربما كان لتحسين ظروف ووضع رحلتهم عبر مصر؛ ومع ذلك يبدو أن العامل المادي المرتبط بنفقات الرحلة كان ماثلًا بقوة، كما توضح حالة فون هارف، الذي تدل نفقاته على أن رحلته كانت الأقل تكلفة على الإطلاق مقارنة بأقرانه. ومع ذلك؛ كان فون هارف هو الحالة الوحيدة الناجحة في هذا الصدد. وهذا يدل على أن الأمر لم يكن سهلًا في ظل الإجراءات المشددة للسلطات المملوكية. وقد عكست حالة أدورنو كيف أن اكتشاف الأمر كان من شأنه –كما تعكس يومياته- أن يصبغ تجربة الحاج في مصر بالطابع السوداوي.
- لا ريب في أن ما عكسته يوميات الرحالة من مضايقات ومصاعب تعرض لها الحجاج الأوروبيون في مصر–أيًا كان

مصداقيتها أو درجة عموميتها- كان من شأنه أن يصدر صورة سلبية عن الرحلة عبر أراضي مصر إلى جبل سيناء، خصوصًا فيما يتعلق بتكلفتها ودرجة خطورتها، وهي الصورة التي دفعت البعض إلى ما يشبه التحذير من القيام بها، كما أظهر الرحالة الإنجليزي السير جون ماندیفیل، وربما أثر ذلك على عدد الحجاج الأوروبيين العابرين لمصر، ورغم أنه من الصعب إجراء إحصاء دقيق عن تطور معدل أعدادهم عبر العصر المملوكي، إلا أن هناك إشارة مهمة ترجح ذلك؛ فعندما بلغ فون هارف ورفاقه دير سانت كاترين بجبل سيناء، قال: "خرج الرهبان لمقابلتنا وتلقونا بترحاب وعبروا عن فرحتهم لأنهم تمكنوا ثانية من رؤية مسيحيين من بلداننا؛ حيث أخبرونا أنه لم يصل أي حاج من البلدان الفرنجية إلى هذا المكان منذ عشر سنوات" (von Harff: 140).

قائمة المصادر والمراجع

أولا. المصادر الأصلية:

Anselm Adorno, *Itineraire d'Anselme Adorno en Terre Sainte (1470-1471)*, trad. Jacques Heers Georgette de Groer, Paris, 1978.

Arnold von Harff, *The Pilgrimage of Arnold von Harff.* Trans. Malcolm Letts. Hakluyt Society, 2nd ser. n. 94. London, 1946.

Bernard Breyedenbach, *Le saintes Pérégrinations de Bernard de Breydenpach 1483*, trad. F. Larrivaz, Le Caire, 1904.

Canon Pietro Casola*, Pilgrimage to Jerusalem in the Year 1494*, trans. Margaret Newett, Manchester, 1907.

Francesco Suriano, *Treatise on the Holy Land*, trans. Eugene Hoade, [Publications of the Studium Biblicum Franciscanum 8], Jerusalem, 1949.

Jean Thenaud, *Le voyage a outremer de Jean Thenaud*, ed. & trad. C. Schefer, Paris, 1884.

John Mandeville, *The Travels of Sir John Mandeville. The Version of the Cotton Manuscript in Modern Spelling*, London, 1915.

Joos van Ghistele, *Voyage en Egypt (1482-1483)*, trad. Renée Bauwens-Préaux, [Collection des voyageurs occidentaux en Egypte 16], Institut français d'archéologie orientale du Caire, Le Caire, 1976.

Martin Baumgarten, "The Travels of Martin Baumgarten, A Nobleman of Germany, Through Egypt, Arabia, Palestine and Syria", in: *A Collection of Voyages and Travels*, ed. Awnsham & John Churchill, London:, 1704, vol. 1.

Simone Sigoli, "Pilgimage of Simone Sigoli to the Holy Land", in: *Visit to the Holy Places of Egypt, Sinai, Palestine and Syria in 1384 by Frescobaldi, Gucci & Sigoli*, trans. Theophilus Bellorini & Eugene Hoade, Franciscan Press, Jerusalem, 1948.

ثانياً. المراجع العربية والمعربة:

ابراهيم محمد حامد سبيمان، "مدينة الإسكندرية في عصر المماليك البرجية من خلال كتابات الرحالة الأوروبيين"، مجلة كلية الآداب بقنا، جامعة جنوب الوادي، ع٤٠ (٢٠١٣م).

إيمان عيد محمد عيد، مصر في كتابات الرحالة الأوروبيين في النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادي/التاسع الهجري، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة كفر الشيخ، ٢٠١٧م.

دوب، ب. هـ، "القاهرة كما رآها الرحالة الغربيون في العصر الوسيط"، ترجمة عبد الرحمن حميدة، مجلة الجمعية الملكية الجغرافية المصرية، ع٢٥ (١٩٥٢م).

سماح السلاوي، "رؤية الرحالة الأوروبيين لعادات وتقاليد المسلمين إبان العصر المملوكي (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)"، مجلة التربية-قطر، ع١٧٨ (مارس ٢٠١٢م).

علي السيد علي، "القاهرة في عيون الرحالة الأوروبيين في القرن الرابع عشر والخامس عشر"، منشور في بحوث في التاريخ الاجتماعي من العصر المملوكي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠١٤م، ص١٠٥-١٤٨.

فايز نجيب إسكندر، القاهرة زمن المماليك الجراكسة في عيني الرحالة الألماني أرنولد فون هارف (١٤٩٧م/٩٠٢م): دراسة تحليلية نقدية مقارنة بمصادر الرحالة الأوروبيين المعاصرين، دار النهضة المصرية، القاهرة، د.ت.

فايز نجيب إسكندر "زمن المماليك الجراكسة في عيني الرحالة الفرنسي جان ثونو (مارس سنة ١٥١٢م/ محرم سنة ٩١٨هـ): دراسة تحليلية نقدية مقارنة بمصادر الرحالة الأوربيين المعاصرين"، أعمال المؤتمر الدولي الثالث "العلاقات المصرية الفرنسية عبر العصور"، كلية الآداب، جامعة قناة السويس، ٢٠١١م.

فايزة صالح سجيني، "التجار والحجاج الأوروبيون في مصر عصر سلاطين المماليك: دراسة في ضوء كتابات الرحالة الأوروبيين"، مجلة بحوث الشرق الأوسط، ع٢٩، مج١ (٢٠٠١م).

محمد فوزي مصري رحيل، "مُكَارية القاهرة في عصر سلاطين المماليك"، آفاق الثقافة والتراث، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، سنة٢٤، ع٩٤، رمضان ١٤٣٧هـ/يونيو ٢٠١٦م.

نسمة حامد عبد الله محمد، الإسكندرية في عصر المماليك الجراكسة في كتابات الرحالة الأوروبيين (١٣٨٢-١٥١٧م/٧٨٤-٩٢٣هـ)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بنها، ٢٠١٩م.

ثالثًا. المراجع الأجنبية:

Di Stefano, L.G., "How to be a Time Traveller: Exploring Venice with a Fifteenth-Century Pilgrimage Guide", in: *Making the Medieval Relevant. How Medieval Studies Contribute to Improving our Understanding of the Present*, ed. Chris Jones, Conor Kostick, Klaus Oschema, De Gruyter, Berlin, Boston, 2020.

Ignatov, I., *Eastward Voyages and the Late Medieval European Worldview*, MA thesis, University of Canterbury, 2013.

Ladić, Z., "Medieval Pilgrims from the Eastern Adriatic Coast to Terra Sancta and Jerusalem", in: *viaggio verso Gerusalemme: Culture, Economie e Territori*, ed. Anna Trono, Marco Leo Imperiale, Giuseppe Marella, *Collana diretta da Lucio Galante* 52 (2014).

Legassie, Sh.A., *The Medieval Invention of Travel*, Chicago, London: The University of Chicago Press, 2017.

Moore, K.B.," The Disappearance of an Author and the Emergence of a Genre: Niccolò da Poggibonsi and Pilgrimage Guidebooks between Manuscript and Print", *Renaissance Quarterly* 66/2 (Dec. 2013.

Moore, K.B., *The Architecture of the Christian Holy Land: Perception from Late Antiquity through the Renaissance*, Cambridge: Cambridge University Press, 2017.

Pryor, J.H., *Geography, Technology and War: Studies in the Maritime History of the Mediterranean, 649-1571*, Cambridge, 1988.

Saastamoinem, T., "The Use of History in Late Medieval Guidebooks to Rome", *XIV International Economic History*, 21- 8- 2016.

Saletti, B., "Vestiti ala moresche: Pilgrims in disguise in late Medieval Accounts", *Annali Online Dell'Universita di Ferrara. Sezione Lettere* 10/2 (2015).

Savage, H., "Pilgrimage and Pilgrimage Shrines in Palestine and Syria after 1095", in" *A History of the Crusades*, ed. K. Sitton, vol.4, Madison, 1977.

Van Eck, M.R., *Custodians of Sacred Space: Constructing the Franciscan Holy Land through Texts and Sacri Monti (ca. 1480-1650)*, PhD dissertation, University of Amestrdam, 2017.

Webb, D., *Medieval European Pilgrimage c.700-c.1500*, New York.

Weber, E., *Traveling Through Text: Message and Method in Late Medieval Pilgrimage Account*, PhD dissertation, New York University, 2001.

Westrem, S.D., *Broader Horizons: A Study of Johannes Witte de Hese's Itinerarius and Medieval Travel Narratives* [Medieval Academy Books, No. 105], Cambridge, Mass., 2001.

Zieman, M.K., "Jerusalem Journey", *The Dalhousie Review* 50/1 (1970).